محاضرات من المجالس الحسينية

الخطيب
الشيخ عبد الوهاب الكاشي

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

مُحاضرات
مِن
المجالس الحسينيّة

الخطيب
الشيخ عبد الوهّاب الكاشي

دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والحمد لله رب العالمين وباريء الخلائق أجمعين الذي بعد فلا يرى وقرب فشهد النجوي تبارك وتعالى .

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وشفيعنا أبي القاسم محمد المصطفى (ص) وعلى آله المعصومين وعترته الهداة الميامين وخلفائه الراشدين واللعنة الدائمة على أعداءهم وظالميهم أجمعين .

وبعد : فقد تكرر الطلب إلى من قبل بعض الأخوة المؤمنين أن أجمع بعض المحاضرات المنبرية وأسجل أهم المواضيع التي إستمعوا إليها بشكل أبحاث وخطب من على المنابر الحسينية لعل الله سبحانه وتعالى ينفع بها بَعضَ شبابنا المعاصر الذين قلت بل إنعدمت ثقافتهم الإسلامية بسبب قلة معارفهم عن الإسلام وضعف معلوماتهم عن الدين حتى أصبحوا لا يعرفون من الإسلام إلا إسمه ولا يعرفون من القرآن إلا رسمه . . . على حد ما ورد في الحديث الشريف . هذا على الرغم من كثرة ما صدر ويصدر من كتب إسلامية ونشراة دينية وهي تحت متناول أيديهم في الأسواق والمكاتب والبيوت . غير أنهم لا يطالعون هكذا كتب بكل أسف لأن المدنية الحديثة لم تترك

لهم فراغاً لمطالعتها أو أن مناهج التربية الحديثة لم تدع لهم رغبة في مطالعة هذه الكتب . وهذا هو . . .

الأمر الذي لا يشجع الكاتب الإسلامي والمؤلف الديني على أن يكتب أو يؤلف . ولكن إبراء للذمة وتخلصاً من المسؤولية أمام الله تعالى لبيت الطلب شاكراً لهم هذه العناية الخيرة الدالة على حسن ظنهم في وفي الشباب المعاصر جعلني الله تعالى عند حسن ظنهم ووفقنا جميعاً لمرضاته وجعلنا ممن ينتصر بهم لدينه ولا يستبدل بنا غيرنا ولا حول وقوة إلا بالله عليه توكلنا وإليه انبنا وإليه المصير والحمد لله رب العالمين .

بيروت في ١٤ صفر سنة ١٣٩٥
٢٥ شباط ١٩٧٥

المؤلف
عبد الوهاب الكاشي

الفَصْل الأوَّل

تعريفُ الإِسلام

قال الإمام أمير المؤمنين (ع) في خطبة له .

الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل . . .

أقول : إن الإسلام مشتق من التسليم لا من الاستسلام . كما يتوهم البعض لأن الاستسلام هو الخضوع الجبري الناشيء عن العجز والضعف والإكراه . أما التسليم فهو الخضوع والإنقياد الإختياري الناشيء عن الرضا والقناعة .

وقد قال الله تعالىٰ في قرآنه الكريم : ﴿ **لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . . .** ﴾ .

وقال سبحانه مخاطباً رسوله الأكرم (ص) : ﴿ **إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . .** ﴾ .

فإذا عرفنا إن الإسلام هو عبارة عن التسليم لله سبحانه والإنقياد له طواعية ورغبة في كل ما يأمر به وينهي عنه .

نقول أن هذا التسليم الطوعي لا يمكن أن يوجد لدى الإنسان إلا بعد أن يحصل له اليقين الكامل بوجود الله سبحانه بكل صفاته وخصائصه ومعرفته التامة بقدرته ووحدانيته وحكمته وعدله ورحمته فإنه حينئذ يعرف الإنسان أن الله تعالى وحده جدير بالتسليم والخضوع لإرادته والإنقياد لأوامره وأحكامه .

وهذا اليقين بدوره يستلزم التصديق بنبوة أنبيائه ورسالاته وكتبه . وذلك لأنه يستحيل على الله عقلاً بمقتضى حكمته التامة

وعدله المطلق ورحمته الواسعة أن يُهمل خلقه ويترك عباده سدى بلا توجيه وقيادة نحو الخير والسعادة التي خلقهم لها والتي يعجز العباد عن الوصول إليها كاملة بأنفسهم الإمارة بالسوء وعقولهم القاصرة عن إدراك كل شيء . . . وهذا التصديق بنبوة النبي (ص) يستلزم الإقرار برسالته ودعوته حتماً . ثم أن هذا الإقرار بالرسالة والدين يؤدي بالضرورة إلى العمل بتلك الرسالة وتطبيق الدين وأداء ما يفرضه عليه الإسلام من عقائد وعبادات وغيرها فالإسلام أو له التسليم ، أي العقيدة والقناعة بوجود الله وبنبوة أنبيائه وبصدق كتبه وآخره أو نتيجته العمل به . ولنبدأ بعون الله أولاً بتفاصيل أهم المعتقدات الإسلامية ومقرراته العبادية والإجتماعية على نحو مبسط وسهل وبأدلة واضحة يستفيد بها شباب عصرنا الحاضر إن شاء الله تعالى . ومعلوم أن أصول العقائد الإسلامية المتفق عليها بين جميع المسلمين هي عبارة عن ثلاثة :

١ ـ التوحيد ، ٢ ـ النبوة ، ٣ ـ المعاد ، ويضاف إليها بناءً علىٰ مذهب الشيعة الإمامية أصلان آخران وهما عبارة عن ـ العدل ـ والإمامة ـ فتكون مجموعها خمسة أصول يجب الإيمان بها عن قناعة وعلم . وإليك بيان الأصل الأول .

الفَصْل الثّاني

الأُصُول الاعتقاديّة

الأصل الأول من الأصول الخمسة التي يجب أخذها والاعتراف بها عن قناعة ويقين هو التوحيد :

وهذا الأصل عبارة عن أمرين الأمر الأول : الإيمان بالله تعالى ، والأمر الثاني الإيمان بوحدانيته .

فالله . . . يعني مصدر القوة العليا والقدرة الفائقة المثلى التي أوجدت الكون بكل ما فيه بحكمة بالغة وعلى نظام ثابت ودقيق اكتشفها العلم في كل ذرة في هذا العالم . تلك الحكمة وذلك النظام اللذان لا تزال قوى هذا الكون وطاقاته وقدراته عاجزة تماماً عن إيجاد وإبداع مثيل لهما أو وضع ما" هو أحسن وأتقن منهما . حتى قيلت الكلمة المشهورة (ليس بالإمكان أحسن مما كان) فمصدر هذه القدرة الخارقة الحكيمة .

هو ما يسمى بكلمة (الله) في لغة العرب وهو كما ترى لا يسع العاقل أن ينكر وجوده أو يشكك في وجوده مطلقاً . ولا أن يشكك في حكمته وإبداعه وتفوق قدرته على كل القدرات الكونية والقوى العالمية .

فالله : بهذا المعنى بديهي المعرفة واضح الوجود حتمي الإيمان به . يبقى أن نذكر الشبهات أو بعض الشبهات التي تدور في بعض الأذهان حول الموضوع ثم نذكر الجواب عنها ببساطة

وإيجاز . من تلك الشبهات الأسئلة التالية :

من أوجد الله ، ومتى وجد ، وأين هو ؟

فنقول رداً على السؤال الأول :

ان الله تعالى ذاتي الوجود لا يحتاج وجوده إلى موجد لأن وجوده أزلي لم يكن مسبوقاً بالعدم . بل هو موجود بذاته وموجود قبل كل شيء مطلقاً ، وهو موجد كل الأشياء مطلقاً ، فهو الخالق ولم يُخلق والمكوِّن ولم يكوَن والموجود بذاته لا بسبب خارجي ، هو السبب الأول لكل الكائنات وعلة العلل في كل المحسوسات والمعقولات على الإطلاق ولا علة لوجوده غير ذاته المقدسة .

ومن هذا الجواب تعرف الإجابة عن السؤال الثاني : (متى وجد الله) وحاصلها أن ليس لوجود الله بداية ، فهو القديم المطلق الذي لم يحدث حتى يكون لوجوده بدءاً أو بداية ، كما انه تعالى لا نهاية لوجوده فهوالأبدي الذي لا انعدام لوجوده مطلقاً .

وذلك لأن البداية والنهاية لوجود شيء يستلزم أن يكون ذلك الشيء معلَّل الوجود ومسَبَّب الوجود لعلة خارجة عن ذاته وسبب مغاير لحقيقته ، وقد قلنا أن الله تعالى علة العلل وسبب الأسباب كلها ، كان حيث لم يكن معه شيء مطلقاً ثم أوجد الأشياء جميعاً . . . فهو ذاتي الوجود وواجب الوجود لا علة لوجوده غير ذاته المقدسة التي لا انعدام لها ، وأما السؤال (بمتى) يعني في أي زمان ، فغير معقول لأن الزمان من مخلوقات الله تعالى ، وهذا يعني أن الله تعالى كان قبل وجود الزمان ، والزمان هو من أثر حركة الأفلاك ودورة الإجرام وسير الكواكب ، وكلها مخلوقات الله تعالى . . . فعلى ضوء ما تقدم يظهر جلياً أن قول القائل في السؤال الثاني (متى وجد الله) سؤال لا مجال لوروده أبداً وأما السؤال

الثالث (أين هو الله تعالى) .

فلا مجال لوروده أيضاً :

لأن المطلوب من السؤال يعني تحديد المكان الذي يحوي الله تعالى ويشتمل عليه ومعلوم أن الاحتواء والاشتمال إنما يقع على الأجسام وعوارضها . والله تعالى ليس جسماً ولا عرضاً من عوارض الجسم لأن الأجسام وعوارضها كافة إنما هي مخلوقة ومحدودة كانت مسبوقة بالعدم ثم وجدت بأسبابٍ وعلل خارجة عنها ، والله تعالى خالق مطلق مصدر الكائنات ، ومنطلق العلل والأسباب لا حدود له ولا حصر ، موجود في كل مكان وقبل وجود المكان كما هو موجود في كل زمان وقبل وجود الزمان ، وسيبقى بعد فناء المكان والزمان .

الله تعالى محيط بالكون كله ومشرف عليه وموجود في كل جزء من أجزائه الزمانية والمكانية ، قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **أينما تولوا فثم وجه الله** . . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا** . . . ﴾ .

هذا بالنسبة إلى الأمر الأول من التوحيد. وهو الإيمان بأصل وجود الله تعالى .

والآن ننتقل إلى الكلام حول الأمر الثاني منه ، وهو الإيمان بوحدانيته سبحانه .

والوحدانية أو التوحيد يعني أن الله سبحانه واحد في ذاته المقدسة وفي صفاته الثبوتية .

واحد أحد ليس له نظير ولا شبيه لا في ذاته ولا في صفاته ، أي أن ذات الباري تعالى وحقيقته وماهيته تغاير كل الذوات والطبائع والماهيات في الكون ، فليس هو مادة ولا هو طاقة ولكنه وجود بسيط في منتهى البساطة لطيف في منتهى اللطافة ، ليست لذاته حدود ولا قيود وليس كمثله شيء لا تدركه الحواس ولا تحيط به الأفكار ولا تتصوره الأوهام . . . وكذلك صفاته تعالى فإنه متوحد فيها ومتفرد في الأتصاف بها وفي طليعتها صفة (واجب الوجود) إذ كل ما عداه سبحانه من الموجودات هو ممكن الوجود .

ومعنى واجب الوجود : هو أن وجوده ضروري لوجود الأشياء كلها وجميع ما في الوجود اكتسب صفة الوجود من وجوده سبحانه ولولا وجوده تعالى لما وجد شيء مطلقاً ، فوجوده جل وعلا علة وجود الموجودات كلها . . . وكمثل خارجي يقرب هذا المعنى إلى الذهن نمثل بصفة (العددية) فإن الأعداد في العالم كثيرة لا تحصر تبدأ من الواحد إلى الألف والمليون والمليارد وغيرها . وكلها إنما تكتسب صفة العددية من عددية الواحد ، فلولا عدد الواحد لما وجد عدد في العالم ، أما الواحد نفسه لا تتوقف عدديّته على أي عدد غيره ، فالواحد واجب العددية بالنسبة إلى باقي الأعداد .

ومثل آخر : صفة الملوحة فإن كل مالح يرجع في ملوحته إلى الملح ولولا الملح لما وجد أي شيء مالح في العالم أما ملوحة الملح فلا تتوقف على ملوحة الأشياء المالحة الأخرى .

ومثل ثالث : الحرارة في النار فإنها ضرورية لوجود الحرارة في غيرها أما هي فلا تتوقف علي حرارة شيء آخر .

وهكذا : صفة الرطوبة في الماء اذ لولاها لما وجد في العالم أي شيء رطب بخلافها أي رطوبة الماء فإنها لا يتوقف وجودها فيه

على رطوبة أخرى ، بل بالعكس والأمثلة الجزئية كثيرة فإذا تعديناها إلى صفة الوجود العام ، للكون نجد أن كل موجود يستند في وجوده إلى غيره ويستمد وجوده من شيء سابق عليه فلا بد أن تنتهي سلسلة عوامل الوجود إلى وجود ذاتي مستقل يفيض بالوجود على غيره ولا يستند في وجوده هو إلي ما سواه ، وهو الله سبحانه وحده . . . وإلا لكان الوجود مستحيلاً عقلاً لأنه على فرض عدم انتهاء سلسلة العوامل والأسباب للكون إلى سبب ذاتي وعامل مستقل في وجوده للزم التسلسل . وهو عبارة عن توقف وجود الشيء على عوامل واسباب لا حد لها ولا حصر ولا نهاية وهو مستحيل عقلي . واما اذا انهينا سلسلة الأسباب الى نفسها بأن قلنا الكون اوجد نفسه بنفسه من طريق اللف والدوران مثل ان نقول مثلاً وجود « أ » من وجود « ب » ووجود « ب » من وجود « ج » ووجود « ج » من وجود « أ » فهذا هو الدور وهو مستحيلٌ عقلي ايضاً لأن معناه توقف وجود الشيء على ما يتوقف عليه او أنَّ شيئاً واحداً موجود ولا موجود في آنٍ واحد . . . وقد ثبت بطلان كل من الدور والتسلسل فكل دعوى تستند إليهما باطلة حتماً وبما أننا نرى الوجود قائماً وجداناً فلا بد من وجود واجب الوجود حتماً ، كما يستحيل عقلاً تعدد الواجب الوجود أيضاً ، لعدم إمكان استناد الصفة الواحدة إلى أكثر من مصدر واحد ، فإن الرطوبة مثلاً لا تنطلق أساساً إلا من مصدر واحد وهو رطوبة الماء ، وصفة العددية لا تنبعث من البداية إلا من عددية الواحد كما ذكرنا ، فلا وجود في الكون إلا من وجود الله[1] **﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ و ﴿ لذهب كل الآه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . . ﴾** .

(١) هذا بالاضافة الى ما يلزم تعدد الواجب الوجود من وقوع الفساد والخلل في نظام الكون كما قال تعالى . لو كان فيهما .

ومن الصفات الخاصة بالله تعالى ولا يشاركه فيها أحدهما . صفتا الأزلية ، والأبدية . أي أنه سبحانه قديم الوجود بلا أولية وبداية وأبديّ الوجود بلا نهاية لوجوده . . . ومنها أيضاً صفة الخالقية والأحياء والأماتة والعالمية الذاتية بكل شيء والقدرة الذاتية على كل شيء والعدل المطلق والحكمة البالغة والرحمة وغيرها ، وخلاصتها هي إعطائه سبحانه وتعالى كل صفات الكمال المطلق وتنزيهه عن كل صفات النقص مثل الظلم والعبث والجهل والعجز والغفلة . . . وغيرها ، بشكل لا نشارك معه في ذلك الإعطاء والتنزيه شيئاً ولا أحداً ، وبهذا فقط نحصل على الأصل الأول من الأصول العقائدية الخمس وهو التوحيد الصحيح .

فالتوحيد صورة واحدة لا تتعدد ، أما الكفر والشرك أجارنا الله منهما فلهما مراتب وصور متعددة ، فإنكار الله مطلقاً أو إنكار صفة من صفاته الخاصة أو نسبة صفة من صفات النقص إليه جل وعلا . . . كلها صور من الكفر ، أو إعطاء بعض صفاته الخاصة به سبحانه إلى انسان ، وغيره مثل الخالقية والقدرة الذاتية على التصرف في قوانين الطبيعة وسنن الفطرة ، هذه كلها من الشرك ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل الجاهلية بقوله : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ لأنهم كانوا يعترفوا بوجود الله ولكن كانوا يعتقدون بأن أصنامهم أو آلهتهم الأخرى لها القدرة أيضاً على التصرف والتغير والتبديل بذاتها وإنها تقربهم إلى الله زلفى . . .

أما التقرب إلى الله سبحانه والتوسل إليه عزّ وجل بأنبيائه ورسله وأوليائه عليهم السلام من طريق حبهم والولاء لهم والبراءة من أعدائهم والتشفع بهم بزيارتهم أحياءاً وأمواتاً وتعظيم شعائرهم والصلاة والدعاء إلى الله تعالى عند قبورهم . . . وأمثال ذلك من

مظاهر التوسل والتقرب.ليس شركاً بالله ولا هو محضور عقلاً أو شرعاً بل إنه مباح ومندوب بنصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة ومتفق على جوازه ومشروعيته الغالبية العظمى من المسلمين ولم يشذ عن إجماعهم إلا شرذمة شاذة حدثت أخيراً يقال لها (الوهابية) حيث حرمت زيارة القبور مطلقاً واعتبرت التوسل إلى الله بكل أحد حتى بالأنبياء والمرسلين كفراً وشركاً ، وهدموا قبور أهل البيت (ع) في البقيع وأرادوا هدم قبة وقبر الرسول (ص) أيضاً ولكن خافوا من ثورة المسلمين عليهم .

وخلاصة الكلام : هي أن الشرك بالله لا يتحقق إلا بإعطاء صفة من الصفاة الخاصة بالخالق العظيم لمخلوق ، كالخالقية ، والرازقية ، والإحياء ، والإماتة ، والعلم بالغيب وسائر القدرات الذاتية ، أو بإعطاء بعض صفات المخلوقين للخالق سبحانه ، مثل الجسمية ، والوالدية والعجز ، وإمكان الرؤية وغيرها .

ومن كل ما ذكر في هذا الأصل تعرف سخافة بعض الأسئلة التي يوردها الجاهلون بحقيقة معنى (الله) مثل قولهم : من خلق الله ـ وأين الله ـ ومتى وجد الله . . . وغيرها ، وقد قلنا أن الله هو الوجود الأول والأخير ، كان قبل وجود المكان والزمان وسيبقى بعد فنائهما ومصدر وجود كل الكائنات وخالق كل شيء وكل ما يتصور وجوده قبل الله فهو وهم باطل لأن معنى (الله) هو الشيء الذي لا شيء قبله . والذي ليس كمثله شيء والذي له المثل الاعلى في السموات والأرض .

الأصل الثاني العدل :

وهو من الصفات الثبوتية لله سبحانه وتعالى التي يجب الإيمان

بثبوتها له وأنما أفرد من بين باقي الصفات الأخرى وجعل كأصل مستقل من أصول العقيدة .

لأن للإيمان بعدل الله تعالى وأنه عادل غير ظالم ، أهميّةً كبرى وأثراً مهماً بالنسبة إلى اثبات الأصول الثلاثة الباقية ، النبوة ، والإمامة ، والمعاد ، كما سنعرف ذلك في البحوث الآتية إن شاء الله ولنعد الآن إلى أصل العدل لنعرف معناه ومدلوله .

فالعدل : يعني إعطاء كل ذي حق حقه كاملاً بدون زيادة أو نقصان .

فعدم إعطاء الحق مطلقاً ، أو إعطاء الحق ناقصاً ، هو الظلم المنزه عنه الله تعالى بحكم العقل أما إعطاء الحق زائداً ، أي إعطاء أكثر من الحق والمستحق فهو الإحسان الذي هو من صفات الله تعالى أيضاً ، ولكن يكفينا في المقام إثبات العدل في كل ما صدر ويصدر عن الله سبحانه فنقول : الله عادل غير ظالم . في التكوين والتشريع اي فيما خلق وفيما شرع اما في التكوين .

أي منح كل مخلوق ما يلزمه لتحقيق سعادته بالنسبة إلى نوعه وأعطاه كل ما يحتاجه لأدامة حياته الطبيعية له ، ثم هداه إلى طرق الإستفادة من تلك المعطيات لتحقيق سعادته وراحته .

وبهذه الظاهرة العدلية استدل موسى عليه السلام في احتجاجه مع فرعون لما دخل عليه هو وأخوه هارون فقال فرعون كما في الآية الكريمة ٤٩ من البسورة ٢٠ طه .

﴿ قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . . ﴾ الخ .

فقد وصف موسى عليه السلام وعرَّف الله تعالى لفرعون بهاتين الظاهرتين المختصتين بالله وحده ، ظاهرة إعطاء كل شيء خلقه . . . أي ما يلزمه ويحتاج إليه ، ثم ظاهرة الهداية والتعليم على استعمال تلك الوسائل والأدوات بالطرق الصحيحة المفيدة لبقائه وسعادته .

فكل المخلوقات من الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأفلاك وما في السموات والأرض من خلايا وذرات مصممه على العدل وقائمة على النظام المضبوط الدقيق ومجهزة بكل ما يكفل بقائها مدة حياتها الطبيعية ويسهل لها أداء واجباتها الفطرية .

فالإنسان مثلاً عندما يولد يجد غذائه الملائم له تمام الملائمة وهو لبن الأم ، يجده حاضراً تحت متناول يده في ثدي أمه الذي مجهز هو بدوره أيضاً بشكل يسهل على الطفل الاستفادة منه من حيث المكان وهو صدر الأم ومن حيث الحلمة التي في طرفه والتي تشتمل على ثقوب صغار ليمتص تلك الحلمة فيجري إليه اللبن تدريجياً . . . والظاهرة هنا في هذا المثال هو كيف اهتدى الطفل إلى أن يلتقم الحلمة بفمه وأن يمصها مصاً وأن يعصر الثدي بيديه خلال المص ليدر اللبن أكثر فأكثر ، وهكذا إلى غير ذلك من الأعمال التي يقوم بها إلى أن يتغذى قدر الكفاية ، فمن هداه إلى الاستفادة من تلك الوسائل ، أجل هداه الله الذي أعطاه تلك النعم ، ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ .

هذه ظاهرة واحدة من ظواهر الهداية الفطرية المشتركة بين الإنسان وبين سائر أنواع الحيوان ونظراً إلى أن الإنسان يختلف عن الحيوانات الأخرى في نمط حياته وسبل راحته وآفاق سعادته فهو سيد المخلوقات وخليفة الله في الأرض خلق للتقدم والتطور الفكري والعلمي والإجتماعي والحضاري وغيرها ، فهو في حاجة إلى هداية

أوسع وأقوى من الهداية الفطرية العامة ليحقق الحياة اللائقة به ويصل إلى السعادة الإنسانية العليا وليرتفع عن مستوى البهائم والوحوش في جميع مظاهر الحياة العامة ولذا فقد منحه الله تعالى هدايتين آخريين ليكمل سيره إلى الكرامة الإنسانية والعيش الرغيد ، ولولاهما لبقي الإنسان يعيش كالحيوانات بلا تقدم ولا تطوّر .

فالهداية الأولى هداية العقل ، هذا العقل الذي اختص الله به الإنسان وفضله به على كل المخلوقات وجعله مدار المسؤولية والتكليف ، هذا العقل الذي يعطي الإنسان قدرة التأمل والتفكير في خلق السموات والأرض وقدرة الاستفادة من الحوادث والظواهر وملكة الاستنتاج والإستثمار من كل ما تحسه حواسه الخمسة الظاهرة ، فالعقل هو المسمى في الاصطلاح الحديث (بالحاسة السادسة) التي بها يستفيد مما يحس به بحواسه الخمسة الباصرة والسامعة والشامة والذائقة واللامسة . . .

وبها أيضاً أي بالحاسة السادسة أو العقل يحس ويدرك أشياء كثيرة لا تحس ولا تدرك بالحواس الخمسة الظاهرة ، ككل الأمور المعنوية والكليات العامة .

وهذا العقل بآثاره التوجيهية والتقدمية .

يبدو في الإنسان تدريجياً منذ دور الصبا المبكر ثم يأخذ بالنمو وبالتكامل الطبيعي تدريجياً وببطىء إلى أن يصل إلى الكمال والنضوج العادي في أواخر سن الشباب ، أي في السادسة والثلاثين أو قبلها أو بعدها بقليل حسب اختلاف الأجسام والأمزجة والظروف المعيشية والسلوك الشخصي . وهناك شواذ تنضج وتكمل عقولهم في وقت مبكر من حياتهم جداً فيقال لهم (النوابغ) كما أن هناك شواذ بالعكس لا تصل عقولهم إلى حد الكمال الطبيعي إلا في المراحل

المتأخرة من حياتهم ويقال لأحدهم (بليد) . . . وقد لا يكمل العقل ولا يصل بتاتاً إلى المستوى الطبيعي عند البعض فيقال لهم البلهاء ، جمع أبله . . . وكل هؤلاء يعدون من شواذ الطبيعة ولهذا الشذوذ أسباب طبيعة من وراثة أو مرض أو صدمات نفسية يذكرها بالتفصيل علماء الطب والنفس وغيرهم .

ونعود إلى هداية العقل فنقول : أنها هداية كبرى ونعمة عظمى من الله سبحانه للإنسان بها امتاز وفضل على سائر أنواع الحيوان وهي أجلى ظواهر العدل الإلهي في حق هذا الإنسان ، غير أنها لا تسد حاجات الإنسان في كافة مجالات الحياة الواسعة ولا تغنيه تماماً بالإرشاد إلى كل المصالح والمفاسد ولا تكفيه كفاية تامة في الوصول إلى الحياة الإنسانية الكريمة والمستوى الإنساني الرفيع ، بسبب بسيط وهو أن العقل من توابع الإنسان المحدود في طاقاته وإمكانياته مهما نضج واكتمل .

لذا فقد دعت الحاجة إلى وضع نظام لهذا الإنسان يرجع إليه في كل ما التبس عليه من خير أو شر ، ولا بد أن يكون هذا النظام من وضع خالق الكون والبشر وتصميم العقل الأكبر على الإطلاق وهو الله سبحانه العالم بكل شيء والعارف بكل مصالح الإنسان في كل وقت ومكان ، وهذا النظام هو :

الدين : فالدين هو الهداية الثالثة والذي جاء لدعم العقل وإمداده بالتوجيه والسير الصحيح نحو التكامل الإنساني والسعادة الكاملة والحياة الأفضل التي لا يستطيع أن يصل إليها الإنسان إلا بهداية الدين فإن العقول ولا شك كثيراً ما يعتريها خلل في التشخيص وخطأ في التطبيق وغلط في التعيين وظلال عن الأتجاه الصحيح . بسبب وقوعها تحت ضغط الشهوات والعواطف او

المؤثرات الأخرى .

ان شريعة الله ونظامه الحكيم يضع أمام العقل نقاطاً على الحروف وعلامات على معارج الطريق وإشارة واضحة على شواطيء السلام ليسير الإنسان على هديها بتمام البصيرة والأمان تماماً كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا** ﴾ الخ ، وقال سبحانه : ﴿ **فأما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

والحقيقة التي لا شك فيها والتي قد أكدتها تجارب الحياة هي أن العقل البشري وحده عاجز عن تحقيق الحياة السعيدة والمجتمع الإنساني الآمن من الشرور والأخطار ، وما من أمه استغنت بعقولها عن شريعة الله تعالى إلا وارتطمت بصحور الفوضى وتدهورت في أودية الفساد الاقتصادي والإداري والسياسي وغيرها . والوضع العام العالمي اليوم وفي الربع الأخير من القرن العشرين عصر غزو الفضاء وارتياد القمر لهو أقوى دليل وأصدق شاهد على صدق هذه الحقيقة ، فإنسان هذا العصر يكاد أن يختنق بالمشاكل والأزمات والأخطار المتنوعة ، رغم تفوقه المادي وإبداعه العلمي . . ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** . . . ﴾

وبهذه الهدايات الثلاث : الفطرة ، العقل ، الدين . قد أتم الله الحجة على الإنسان وحقق عدله في حقه ووفر له أوسع السبل وأكمل الوسائل وأتم الأسباب للوصول إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة . فإذا لم يصل إليها فما ذلك إلا بما كسبت يداه وما ربك بظلام للعبيد . . .

الأصل الثالث النبوة :

وهي تعنى الواسطة بين الله سبحانه وبين عباده في تبليغ رسالته وتعليم دينه ونشر أحكامه وهذا الشخص يقال له النبي . . . إذا كان يوحى إليه من طريق الرؤيا أو سماع صوت الملك بالوحي إليه دون أن يشاهد الملك بالذات .

ويقال له الرسول . . . إذا كان يشاهد الملك شخصياً ، وقيل في الفرق بينهما وجوه أخرى لا ضرورة للتعرض لها ها هنا ، قال سبحانه : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء** ﴾ ووجه الحاجة إلى هذا الوسيط هو استحالة ظهور الله سبحانه للناس لإبلاغِهم دينه مباشرة لأن ذلك من لوازم الأجسام والله منزه عن الجسمية وعوارضها كما قدمنا ومن جهة ثانية فإن دين الله ونظامه للناس بحاجة ماسة إلى من يطبقه وينفذه فيما بينهم وفي نفس الوقت يكون قدوة لهم في العمل بذلك الدين والتقييد بذلك النظام ، والا لبقي الدين حبراً على ورق وألفاظاً بلا نتيجة عملية .

لذا فقد اقتضت المصلحة بأن يكون الوسيط من البشر أنفسهم لا من جنس آخر كالملائكة مثلاً لأن الملك لا يكون حجة على الإنسان ولا يكون قدوة له لتغاير الجنسين والطبيعتين بينهما ، فلا بد من أن يكون الوسيط بشراً ، ولا بد أيضاً أن يكون أكمل أفراد البشر وأفضلهم قاطبة في العلم والعمل والأخلاق ، ليثقوا بقوله وينقادوا لأوامره ويتبعوا سيرته ويحترموا سننه ، وهذه الأفضلية والأكملية يعبر عنها (بالعصمة) فيجب أن يكون الأنبياء بشراً معصومين ، قال تعالى : ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ والنبوة عهد الله . وكل مذنب ظالمَ ، فالنبوة لا ينالها إلا المنزهون عن كل ذنب ونقص ، وهذا هو

بالضبط واقع جميع الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا إلى الناس برسالات الله سبحانه وعددهم حسب المشهور مائة وأربع وعشرون ألف نبي ورسول أولهم آدم أبو البشر(ع)وآخرهم محمد بن عبد الله (ص) وما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تنسب الذنب أو المعاصي إلى بعض الأنبياء فإن المقصود بها ترك الأولى والأرجح بالنسبة لهم ، لا ترك الواجب ولا الفعل الحرام ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه** . . ﴾ ، وقد أجاب العلماء في الكتب الكلامية مثل كتاب تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى وكتاب الحق اليقين للسيد عبد الله شُبَّر ، وأمثالهما ، وللإمام الرضا (ع) بحث مفصَّل حول الموضوع مع المأمون العباسي فراجعه في أحواله (ع) وأما ما تنسبه الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى من الأعمال المحرمة في الإسلام إلى بعض الأنبياء كشرب الخمر إلى المسيح (ع) مثلاً ، فكلها كذب وافتراء على مقام الأنبياء (ع) دسها المغرضون لغايات خاصة أو لغرض نشر الفحشاء وترويج المنكرات وإفساد الأخلاق ، ونعود إلى الوساطة التي يقوم بها الأنبياء في حمل الرسالة من الخالق العظيم إلى المخلوقين فنقول : كيف تعرف هذه الوساطة وكيف يعلم الناس صدق مدعيها مع احتمال الكذب أو الإلتباس في حق المدعي لنزول الوحي عليه ؟ .

والجواب هو : أنه هناك علامات لصدق مدعي النبوة أهمها ثلاث علامات :

الأولى : حسن سمعة المدعي وسلوكه وأن يكون معروفاً بالصدق والأمانة وفضائل الأخلاق وجميل الصفات .

الثانية : أن يكون منصوص عليه ومبشراً به من قِبل الأنبياء السابقين وعلى الأخص من النبي الذي كان قبله مباشرة .

الثالثة : وهي أهمها ، أن يظهر على يده المعجزة وهي فعل خارق للعادة ويعجز الناس عن القيام بمثله ، مثل الطوفان على يد نوح (ع) وتحويل العصى إلى ثعبان على يد موسى (ع) وانقلاب النيران الى جنات لإبراهيم الخليل (ع) وإحياء الميت على يد عيسى (ع) ومجيء القرآن الكريم على يد محمد (ص) وهذا المعجز ليس من صنع النبي وقدرته وإنما هو من الله وحده ومن ظواهر قدرته الخاصة ولا يستطيع البشر مطلقاً أن يفعلوا مثله وقد أجراه الله على يد هذا النبي لتثبيت نبوته ويعرف الناس أنه رسول الله إليهم ، وبهذا يفترق المعجز عن المخترعات العلمية المدهشة الحديثة وعن أعمال السحر ، لأن كلا من هذين الأخيرين لا ينحصران في شخص واحد بل يمكن لكل إنسان أن يفعلها إذا تعلم وعرف طرقها ووسائلها ، بخلاف المعجز ، فقرآن محمد (ص) مثلاً لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله حتى الآن وسوف لن يستطيع أحد غيره إلى الأبد .

والخلاصة هي : أن المعجزة التي يقدمها الأنبياء هي أشبه بأوراق الاعتماد التي يقدمها السفراء عادة إلى رؤساء الدول المعتمدين لديهم إثباتاً لسفارتهم وتصديقاً لإعتمادهم من قبل حكوماتهم ، وبالتالي فالمعاجز هي ظواهر خارقة للعادة ومخالفة لنواميس الطبيعة ولا تخضع لأي قاعدة مادية أو حساب علمي بل إنما هي خاضعة لقدرة الله فقط الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . . . هذا ما يجب أن يعرفه أولئك الذين ينكرون معاجز الأنبياء عليهم السلام بحجة أنها ، أي تلك المعاجز تخالف المقررات والقوانين التي درسوها في العلوم الطبيعية أو الرياضية مثلاً ، نقول لهم :

أجل هي كذلك تخالف النواميس الطبيعية ، ولا بد أن تكون كذلك ، ولو لم تكن كذلك لما سميت معاجز ، أي يعجز الإنسان عن مثله ، ولما كانت دليلاً على أن هذا الإنسان مرسل من قِبل القدرة العليا أو القوة القاهرة ، من قِبل الله تعالى الخالق للطبيعة والقادر الوحيد على التصرف بها حيث يشاء ، كما جاء في احتجاج ابراهيم الخليل (ع) على النمرود ، حيث قال له ابراهيم : ﴿ **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر** ﴾ .

ومن كل ما ذكر عن تعريف النبوة وشرائطها وعلاماتها : يُعرف أن نبينا محمد (ص) هو نبي الله ورسوله إلى الناس جميعاً ، حيث توفرت فيه جميع متطلبات النبوة وعلاماتها وشرائطها على أكمل وجه ، فمن حيث الكمال الإنساني فلقد كان أفضل أهل زمانه بل أفضل الناس جميعاً في الصفات الكريمة والأخلاق الفاضلة حتى عرف بالصادق الأمين ، ومن حيث البشارة به في الكتب السماوية وعلى لسان الأنبياء ، فلقد ثبت للمتتبعين والباحثين أن ذكره الشريف لم يخل منه كتاب سماوي صحيح ولم يغفله نبي أو رسول ، تماماً كما قال الأديب الأزري (ره) .

أيُّ خلق لله أعظم منه ... وهو الغاية التي استقصاها
قلّبَ الخافقين ظهراً لبطن ... فرءآ ذات أحمد فاجتباها
بشرت قومها به الرسلُ طُرّاً ... طرباً باسمه فيا بشراها
وتنادت به فلاسفة الكهان ... حتى وعا الأصم نداها
وصفوا ذاتة بما كان فيها ... من صفات كمن رءآ مرءآها
نوهت باسمه السموات والأرض ... كما نوهت بشمس ذكاها
لا تحل في صفات أحمد فكراً ... فهي الصورة التي لن تراها

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تؤكد هذه الحقيقة .منها قوله تعالى : ﴿ . . . **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** . . . ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **اذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد** ﴾ .

واما من حيث المعاجز فلقد أظهر الله سبحانه على يده معاجز كثيرة ثبتت عنه بالتواتر والإجماع أمثال شق القمر ومجيء الشجره إليه وتكلم الحيوان معه وإحياء الأموات وإبراء المرضى وغيرها ، ولكن معجزته الكبرى التي فاقت جميع المعاجز ، والتي تحدى بها الناس ولا يزال يتحداهم هي : القرآن الكريم ، والمعجزة الخالدة أبد الدهر والبرهان الساطع على نبوته (ص) المعلن بكل ثقة وصراحة : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ فاستمرار إعجاز القرآن للناس عن الإتيان بمثله فصاحة وبلاغة وأسلوباً ونظاماً وعقيدة وأخلاقاً وغيرها . أقول أن دوام هذا الإعجاز واستمراره إلى اليوم لهو دليل قاطع على استمرار نبوة محمد (ص) ودوام شريعته ودينه كشريعة سماوية وحيدة ودين وحيد يجب على الناس جميعاً اعتناقه والعمل بمقتضاه ورفض كل دين سواه حيث لا دليل على بقاءه إلى اليوم .

وإليك هذه الفقرات من خطبة الإمام علي أمير المؤمنين (ع) في وصف مزايا القرآن الكريم . . . واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام بزيادة ونقصان زيادة في هدي ونقصان من عمي واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقه ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به

على لوائكم فإن فيه شفاءاً من أكبر ألداء وهو الكفر والنفاق والغيُّ والضلال . . .

ولا يزال الخبراء والعلماء في أنحاء العالم يعترفون بتفوق القرآن على كافة الكتب المقدسة ويؤكدون على أن نظامه الإجتماعي والإقتصادي وسائر قوانينه الأخرى تتفوق على كافة النظم والقوانين الأرضية التي مارسها العالم فلقد قال شبلي شميل : إن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة معاً ولترقية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره تلك الأبواب وقصر وظيفة البشر على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني . . . وقال أحد فلاسفة أوروبا في القرن الثامن عشر : إني أعتقد لو يعرض القرآن والإنجيل على شخص غير متدين فإنه سيرجح القرآن على الإنجيل قطعاً لأن كتاب محمد (ص) يذكر حقائق ويقرر أموراً تنطبق تمام الانطباق على المباني العقلية والقواعد المنطقية . . . وقال العالم الإنكليزي الشهير توماس كارليل : أن القرآن هوالتشريع الأساسي لكل زمان ومكان ، ومعدن القضاء وأن قوانينه المتبعة تنير الطريق لإتباعه في أمور الحياة والحق يقال أن الكتب بالنسبة إلى القرآن تعد حقيرة فإنه منزه عما يستهجن . . . وقال العالم الغربي الآخر (جيبون) : أن القرآن هو الدستور العمومي لكافة العالم فهو نظام الكون في المعاد والمعاش وحفظ الصحة والمصالح العمومية والشخصية والإجراءات الجزائية وقمع المظالم وصيانة الحقوق وذلك أمر إلهي لا مرية فيه . . . وإلى غيرها من تصريحات العلماء والخبراء التي لا مجال هنا لإستقصائها .

والخلاصة هي : أن القرآن الكريم الموجود اليوم يأذي المسلمين هو كتاب الله الناطق بالحق ومعجزة محمد (ص) الخالدة ودليل الإسلام القاطع وبرهانه الساطع ودستوره الدائم ومصدر

تشريعاته الأساسي . . . لا تفتح الخيرات إلا بمفاتيحه ولا تكشف الظلمات إلا بمصابيحه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يهدي للتي هي أقوم ويهدي إلى صراط مستقيم وبهذا نختم الحديث عن النبوة الكريمة لنبدأ الكلام حول الأصل الرابع من الأصول العقائدية الخمسة وهو : الإمامة ، أو الخلافة . . .

الأصل الرابع الإمامة :

وهي تعني النيابة العامة عن النبي (ص) في القيام بكل مهامه وصلاحياته بعد وفاته ما عدا التشريع الذي هو من خصائص النبي ولوازم الوحي إليه ، وفيما عدا ذلك فالإمام يخلف الرسول وينوب عنه ويتحمل جميع مسؤولياته وله أيضاً كل ما للنبي من الحقوق على الأمة مثل الولاية العامة على الناس وفرض طاعته عليهم في أمور دينهم ودنياهم ، فهو المرجع الأعلى للأمة مثل الرسول (ص) تماماً ولذا وجب أن يكون أشبه الناس به في المواهب والملكات وأقربهم إليه في الأخلاق والصفات ويشترط في الإمام كل ما يشترط في النبي (ص) من لوازم وشروط كالأفضلية في العلم والعمل والأكملية في فضائل الأخلاق واختياره من قِبل الله سبحانه والنص عليه ممن قبله من نبي أو رسول أو إمام وغيرها ، ولقد اختار الله جل وعلا لخاتم أنبيائه محمد (ص) اثني عشر خليفة من أهل بيته وعرته وأمر رسوله الأكرم أن ينوه بهم وينص عليهم ويعرّفهم إلى أمته فقال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ فامتثل النبي (ص) أمر ربه وبلغ الناس بأسماء خلفاءه وبعددهم الإثني عشر وهم على التوالي :

١ ـ علي بن أبي طالب (ع) ٢ ـ الحسن بن علي (ع) ٣ ـ

الحسين بن علي (ع) ٤ ـ علي بن الحسين (ع) ٥ ـ محمد بن علي الباقر (ع) ٦ ـ جعفر بن محمد الصادق (ع) ٧ ـ موسى بن جعفر الكاظم (ع) ٨ ـ علي بن موسى الرضا (ع) ٩ ـ محمد بن علي الجواد (ع) ١٠ ـ علي بن محمد الهادي (ع) ١١ ـ الحسن بن علي العسكري (ع) ١٢ ـ محمد بن الحسن المهدي المنتظر (ع) . وقال عنهم كما في الحديث المتواتر . . . الأئمة من بعدي اثنا عشر لا يزال الدين قائماً بهم حتى تقوم الساعة وكلهم من قريش ، وقال عنهم أيضاً صلوات الله عليه : « . . . مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى » ، وقال (ص) : إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدفا فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة . . .

والخلاصة هي : أن الإمامة أخت النبوة في أن كلا منهما أداة لتبليغ أحكام الله إلى عباده وتطبيق دين الله بين خلقه وقدوة عملية صالحة للناس ومرجع أعلى لهم في الحيرة والتنازع والمشكلات والمسؤول الأول عن رعاية الأمة وقيادتها نحو التكامل الإنساني وسعادة الدارين . . . مع فارق واحد فقط ، وهو أن النبي يتلقى الأحكام من الله بالوحي المباشر أو بواسطة الملك ، أما الإمام فإنه يعمل بوحي من الرسول الكريم ويتحرك في إطار كتاب الله وسنة رسوله نصاً وروحاً ، أن كلا منهما يختار من قِبل الله تعالى وحده وليس للناس حق التدخل في جعله واختياره ، قال سبحانه : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة . . .** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته . . .** ﴾ ، كما وليس لإجتماع الناس حوله أو تفرقهم عنه أثر في نبوته أو إمامته ، فالنبي نبيٌ سواء آمن به الناس واتبعوه أو كفروا به وخذلوه ، والإمام كذلك

أمام سواء بايعه الناس وشايعوه أو جحدوه وتركوه وحده ، ولقد صرح النبي (ص) في نصه على إمامة الحسن والحسين (ع) بقوله أبناي هذان إمامان قاما أو قعدا . . . أي سواءً مكّنهما الناس من القيام بمهام الإمامة وشؤونها الإدارية والقيادية أم منعوهما واغتصبوهما ذلك الحق ، لأن إمامتهما وإمامة غيرهما من الخلفاء الإثني عشر المنتخبين ثابتة لهم بمقاييس عقلية وشرعية ليس فيها اجتماع الناس عليهم ولا تفرقهم عنهم وتلك المقاييس تتلخص في أمرين : ١ ـ النص ٢ ـ والأفضلية العامة ، والدليل على ضرورة النص هو : عقلي ونقلي ، فأما العقلي فهو أن الأفضلية العامة على جميع الناس أمر غيبي ولا يمكن أن يعرفه إلا الله سبحانه الذي يعلم غيب السموات والأرض ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . . . وأما الدليل النقلي فقوله تعالى : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة . . .** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ .

والدليل على ضرورة الأفضلية فكذلك أيضاً عقلي ونقلي ، أما العقلي فقبح تقديم المفضول على الفاضل عقلاً وبإجماع عرف العقلاء ، وأما النقلي فقوله تعالى : ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف يحكمون . . .** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . .** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لا ينال عهديَ الظالمين . .** ﴾ .

والإمامة عهد الله لا يناله من أذنب في حياته (ولو ذنباً واحداً لأنه يصدق عليه عنوان الظالم) لغة حتى وإن تاب من ذلك الذنب وأصلح .

وهذان الأمران الضروريان في الإمامة قد توّفرا في علي (ع) وأبنائه الأحد عشر (ع) بشكل قاطع ولم يتوفرا لغيرهم بعد رسول الله (ص) لذلك كانت الإمامة حقاً لهم شرعاً وعقلا دون غيرهم ،

فعلي عليه السلام والأئمة الأحد عشر من أبناءه هم أفضل الناس قاطبة بعد رسول الله (ص) بشهادة التاريخ والسيرة الثابتة عنهم واعتراف الصديق والعدو بذلك لهم ، وبالإضافة إلى عشرات النصوص الثابتة عن رسول الله (ص) على إمامتهم بعده وخلافتهم الشرعية عنه والتي قد رواها أعلام الصحابة وتضمنتها الصحاح وكتب التفسير والسيرة بالتواتر ، ونعود إلى أصل الموضوع لنؤكد :

ان الإمامة أو الخلافة هي النيابة العامة عن رسول الله (ص) في جميع صلاحياته وسلطاته وحقوقه وواجباته في إطار الرسالة التي أكملت وختمت على يد الرسول (ص) ولا يشك عاقل في أن هذا المنصب الخطير والمركز الحساس الذي عليه مدار سعادة الأمة أو شقائها نجاحها أو فشلها حياتها أو موتها . . . إن هذا المنصب لا يمكن أن يؤكل أمر ملئه وإشغاله إلى شخص عادي من عامة الناس ينقاد للعواطف ويتأثر بالنزوات والشهوات ويجهل الكثير من الآيات والأحكام ويعمل في الناس بالظنون والإحتمالات والشبهات والإنسان العادي لا يخلو من بعض الصفاة والحالات المنافية للإمامة حتماً .
وهي الصفاة التي لخصها الإمام عليه السلام في بعض خطبه فقال : وقد علمتم انه لا ينبغي ان يكون على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وامامة المسلمين البخيل فيكون في اموالهم نهمة ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشى في الحكم فيذهب بالحقوق ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة . بل ولا يشك عاقل في أن الله العادل الحكيم والرؤوف الرحيم اللطيف بعباده الذي بريد لهم الخير الأكمل والسعادة الأتم ، لا يمكن أن يوكل أمر تعيين الإمام هذا إلى الناس العاجزين عن اختياره بالشكل المطلوب كما لم يوكل إليهم أمر اختيار الأنبياء من قبل لنفس السبب ، لأن ذلك ليس من

مصلحتهم ولا بد أن يؤدي بهم إلى الفوضى والفتنة والفساد ، كما حدث بالفعل في كل أمة أعرضت عن خليفة نبيها المختار من قِبل الله تعالى .

فأمة موسى (ع) افترقت وتمزقت لما أعرضت عن خليفته في حياته أخيه هارون لما غاب موسى عنهم أربعين ليلة لميقات ربه ، وأعرضت عن خليفته بعد وفاته يوشع بن نون فأصابهم بذلك ما أصابهم من الضعف والوهن حسبما هو مذكور في كتب التاريخ والتفسير .

وهذه أمة عيسى (ع) افترقت إلى اثنتين وسبعين فرقة حسب نص الحديث الشريف وذلك بأعراضهم عن وصية شمعون الصفا وسائر أوصيائه الشرعيين .

وأما أمتنا هذه الأمة الإسلامية فكلنا يعلم ما حل بها من ويلات الفتن والتشتيت والانقسام والتفرق إلى ثلاث وسبعين فرقة أو أكثر لما أعرضوا عن خليفة نبيهم المعين من قِبل الله تعالى والمنصوب يوم الغدير بنص رسول الله (ص) وهو علي بن أبي طالب (ع) .

وهذه الظواهر تؤكد الحقيقة القائلة بأن البشر لا يمكن أن يستغني عن قيادة السماء المتمثلة في الأنبياء وأوصيائهم المنتخبين من الله تعالى ، ومن ثمة قرن رسول الله (ص) أوصيائه الإثني عشر الذين لا يخلو منهم زمان برسالته وقرآنه الخالدين إلى قيام الساعة فقال في الحديث المتواتر بين كافة المسلمين » .

« إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » ، وإلى حاجة الأمة الى القائد الكفوء المعصوم من الخطأ في كل زمان أشار الرسول (ص) بل صرح في قوله المشهور « من

مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

ونظراً إلى هذه الحاجة الماسة من قبل الناس إلى القيادة الحكيمة دائماً وعدم كفاية القرآن بمفرده لقيادة الأمة تشريعاً وتنفيذاً وتنظيماً ، قال سبحانه : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . . .** ﴾ .

فإطاعة الله يعني إطاعة الكتاب العزيز ، وإطاعة الرسول يعني الانسجام والانصياع مع سنة الرسول من قول وفعل وتقرير ، وإطاعة أولي الأمر يعني إطاعة القيادة العليا بعد الرسول التي توحد الأمة صفاً واحداً وهدفاً واحداً في خط واحد ضمن إطار الكتاب والسنة ، ولئلا يلتبس معنى أولي الأمر على بعض البسطاء فيظنون أنه كل من استولى على السلطة واحتل مركز الحكم ولو بالقهر والقوة والغدر والخيانة والإحتيال ، ولئلا ينتهز المنافقون هذا العنوان فيطبقونه على أنفسهم ، لذلك كله شرح رسول الله معنى أولي الأمر بقوله عندما سئل : أما الله ورسوله فقد عرفناهما فمن هم أولي الأمر الذين أوجب الله علينا إطاعتهم يا رسول الله ، فقال (ص) :

هم خلفائي وأئمة المسلمين بعدي أولهم علي بن أبي طالب (ع) وبعده ابنه الحسن (ع) وبعده أخوه الحسين (ع) وبعده أبنة علي زين العابدين (ع) وبعده أبنه محمد الباقر (ع) وبعده أبنه جعفر الصادق (ع) وبعده أبنه موسى الكاظم (ع) وبعده أبنه علي الرضا (ع) وبعده أبنه محمد الجواد (ع) وبعده أبنه علي الهادي (ع) وبعده أبنه الحسن بن علي (ع) وبعده أبنه سمِّي وكنِّي محمد بن الحسن الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

ولقد تكرر هذا الشرح والتفصيل منه (ص) في مواطن عديدة

راجعها في كتاب ينابيع المودة للقندوزي الحنفي وكتاب الصواعق لابن حجر وكتاب مسند أحمد بن حنبل وغيرها . .

كما حدد الرسول (ص) من قبل معنى (أهل البيت) في قوله تعالى : ﴿ **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ فجمع رسول الله علياً وفاطمة والحسن والحسين تحت كسائه وقال اللهم ان هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم اني سلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم ووليٌ لمن والاهم وعدو لمن عداهم فاجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك عليهم . وصار بعد ذلك ولمدة ثمانية أشهر من نزول الآية الكريمة عليه ، صار كلما خرج (ص) إلى المسجد للصلاة يقف على باب علي وفاطمة ويقول :

السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته . . . ثم يقرأ الآية الكريمة : ﴿ **أنما يريد الله ليذهب** . . . ﴾ كل ذلك لقطع الطريق على الذين ادعوا بأن أهل البيت . يعني نساءه وزوجاته ، أو عامة بني هاشم بالإضافة اليهن ، أو غير ذلك من الإدعاءات التي يفندها الواقع ويدحضها التاريخ الصحيح .

وحدد أيضاً صلوات الله عليه وآله ، معنى (حبل الله) في قوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ ، حدده بعلي بن أبي طالب (ع) وقال هذا حبل الله فاعتصموا به ولا تفرقوا عنه فإنه لا يخرجكم من هدى ولا يدخلكم في ردى . . .

وعلى ضوء ما ذكرنا عن الإمامة وشرائطها ولوازمها والغرض من اقامتها للناس ، يعرف بكل وضوح انها ، أي الإمامة الشرعية بعد الرسول مباشرة هي حق علي بن أبي طالب وأبنائه الأحد عشر . لا لأنهم أقارب النبي (ص) كلا لأن الإمامة ليست بالقرابة والوراثة

والنسب وانما هي بالكفاءات الخاصة المذكورة ، أي الأفضلية المطلقة والنص الخاص من الرسول (ص) وهما لم يتحققا لأحد بعد الرسول إلا لهؤلاء وذلك بإجماع المسلمين والحمد لله رب العالمين اللهم اجعلنا من المؤمنين بك والمصدقين برسولك محمد (ص) والمعتصمين بولاء خلفاءه الراشدين الإثني عشر المعصومين علي وأبنائه (ع) ولا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا لذلك كله وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب . .

وفي الختام نذكر أبياتاً تناسب المقام وهي منسوبة لمحمد بن ادريس الشافعي (رضي) .

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم
مذاهبهم في أبحر الغيّ والجهل
ركبتُ على اسم الله في سُفُن النجا
وهم آل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولائهم
كما قد أُمرنا بالتمسّك بالحبل

الأصل الخامس المعاد :

والمعاد يعني عودة الإنسان إلى الحياة ثانية بعد الموت وبعد فناء هذا العالم كله . يعود إلى الحياة في عالم آخر يختلف كلياً عن هذا العالم الفعلي الذي نعيشه الآن . ولا غرابة في ذلك بعد ان مرَّ كل منا بعوالم ثلاث تختلف عن بعضها اختلافاً كبيراً . وهي :

أولاً : عالم الأصلاب ، أي فترة كون الإنسان نطفة أو بعبارة أخرى . حيوان منوي .

ثانياً : عالم الأرحام أي الفترة التي يقضيها الإنسان في رحم

الأم ومراحل حياته فيها من كونه نطفة إلى علقة إلى مصغة إلى عظام مجردة من اللحم وأخيراً إلى عظام مكسوة باللحم . . . وغير ذلك .

ثالثاً : عالم الدنيا ، أي هذه الحياة التي نعيشها من حين الولادة وحتى الوت ، فهي أنواع ثلاثة مختلفة من العوالم وانماط الحياة وأمامنا النوع الرابع والأخير وهو المعاد وعالم الآخرة وقبل كل حياة في هذه العوالم الأربعة فترة موت أو سكون أو راحة استعداداً لها وتهيأ لأداء مقتضياتها . يقول أبو العلاء المعري في قصيدته الدالية .

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السُهاد
خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للتفاد
إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

وفي هذا العالم الأخير يتواجد الخلائق اجمعون لملاقات نتائج ما كانوا يعملون في دار الدنيا ، التي هي وحدها دار التكليف والمسؤولية دون ما قبلها من عالمي الأصلاب والأرحام ، فيوفي كل أنسان حقه وسيتوفى من الله ثوابه أو عقابه بالعدل . قال تعالى : **﴿ قل أن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . . . ﴾** وقال سبحانه : **﴿ لتوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾** .

والدليل على هذا المعاد من حيث الأصل هو : ان الله سبحانه وتعالى عادل حكيم كما ثبت ذلك بحكم العقل والوجدان وبشكل واضح . اما حكم العقل فلأن الظلم ناشيء عن سببين رئيسيين الأول الجهل والثاني العجز ، وان الله تعالى منزه عن كليهما فإذا انتفا عنه الظلم لانعدام اسبابه فيه ثبت له العدل لا محالة . واما حكم الوجدان فهو ما تراه في خلقه وتكوينه للكون والحياة وما وفره فيهما من اسباب الخبر والسعادة والهداية حسبما سبق ذكره في اصل

العدل فراجع . . . وقد وضع للناس نظاماً وفرض عليهم أحكاماً كما قدمنا . ثم نجد أن الناس بالنسبة إلى هذا النظام على قسمين فمنهم المطيع العامل المحافظ ومنهم بالعكس مخالف وعاصٍ ومتمرد . فلو لم يكن في البين حساب وثواب وعقاب لعدُّ ذلك النظام عبثاً وواضع النظام ظالماً . تعالى الله عن ذلك ، ونظراً إلى أن هذه الحياة ليست مكان ذلك الثواب والعقاب ، لأنها ظرف عمل . والجزاء عادة يكون بعد انتهاء فترة العمل أي بعد الإنتقال من هذا العالم إلى عالم الآخرة كما قال الإمام علي (ع) اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ، وقال الله تعالى مهدداً : ﴿**فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ .

فإذاً لا بد من العودة إلى الحياة ثانية لتلقى النتائج وردود الفعل التي ترتبت على السلوك والأعمال في هذه الحياة بمقتضى حكمة الله وعدله . قال جل وعلا مستنكراً جحود المنكرين للمعاد : ﴿ **أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو**﴾ .

ولا أظن العاقل المؤمن بالله والعارف بقدرة الله التي لا تحد . . لا أظنه بحاجة إلى الإستدلال على امكان وقوع المعاد وتحققه لأن قدرة الله تعالى القادر على كل شيء هي أوضح دليل على امكان ذلك ووقوعه ، .فليست اعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت وتلاشى الجسم وصيروته تراباً ليست بأعجب ولا أغرب في نظر العقل من إيجاده الأول من نطفة .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **أولم يـر الإنسان انا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق**

عليم . . ﴾ وقال تعالى حكاية عن مشركي قريش : ﴿ وقالوا أأذا كنا عظاماً ورفاتا أأنا لمبعوثون خلقاً جديدا، قل كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ . .

وقال الإمام علي (ع) في كلماته القصار : عجبت ممن أنكر النشئة الأخرى وهو يرى النشئة الأولى .

وأخيراً قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مِمَّ خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، إنه على رجعة لقادر . . ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وفيما ذكرنا منها كفاية وخلاصة الكلام : هي ان الإيمان بالمعاد ضرورة انسانية وعقيدة اسلامية أساسية والمنكر للمعاد خارج عن الإسلام وبعيد عن حضيرة المسلمين كما انه مهدد بالشذوذ والإنحراف عن طريق العدالة والحق في كل آن لأن الإيمان بالمعاد بالشكل الراسخ الكامل يخلق في النفس البشرية رادعاً ذاتياً عن المنكرات وحصانة ومناعة ضد الجرائم والموبقات كما هو محسوس بالوجدان ومشاهد بالعيان ، فالإنسان المؤمن بالله السميع العليم وبالمسؤولية أمامه بعد الموت يفكر الف مرة ومرة في عواقب الأعمال قبل الاقدام عليها . قال الشاعر :

لا تنتهي الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ

والإيمان بثواب الله وعقابه أفضل زاجر للإنسان عن الغي والشر . وقال الشاعر الآخر :

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

والإيمان بثواب الله وعقابه أقوى علة لخلق العفة في الإنسان عن الظلم وأهم عوامل الصلاح والإصلاح بالنسبة للإنسان الذي لا

يمكن أن تكبح نوازع الشرفية إلا بوازع ذاتي ورادع نفسي .

ولا يملك المنكرون للمعاد أي دليل يبرر هذا الإنكار لا علمياً ولا عقلياً بل هم يتمسكون بمجرد انهم لا يرون ولا يسمعون ميتاً خرج من قبره أو صرخ تألماً من العذاب في لحده . وهم يجهلون أو يتجاهلون أن العذاب أوالثواب ليسا في هذه الدنيا وانما هما بعد فناء الناس جميعاً وعند قيامهم في العالم الأخير وهو عالم الآخرة كما ذكرناه مفصلاً . أما الآن وبعد موت الإنسان إلى نهاية هذا العالم وهي الفترة المسماة (بالبرزخ) أي الوسط بين هذين العالمين الدنيا والآخرة . فهي اشبه بفترة التوقيف قبل المحاكمة تقريباً تنظم فيها صحائف الإنسان وتصنف أعماله وتجمع التقريرات المرفوعة له أو عليه وتهيأ كلها في كتاب مفصل دقيق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ليقدم إليه ساعة المحاكمة وللوقوف بين يدي الله سبحانه فيخاطبه جل وعلا : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ . بعد **قوله تعالى** : وكل انسان الزمناه طائرة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا اقرأ كتابك . والطائر ، يعني العمل ، والعنق ذات الشخص ، أي كل شخص يلزم بعمله الخاص به الصادر منه ويحاسب على مسؤولياته المتعلقة به . فلا يثاب بحسنات غيره ولا يعاقب على سيئات الآخرين . ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ . صدق الله العظيم .

وصدق الإمام أمير المؤمنين (ع) حيث يقول عن ذلك في بعض خطبه : « اعلموا عباد الله أن عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنكم منهم بابٌ ذو رتاج وأن غداً من اليوم لقريب فكأن كل امرءٍ منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته

ومخط حفرته وكأن الساعة قد غشيتكم وبرزتم لفصل القضاء فاتعظوا بالعِبَر واعتبروا بالغير وانتفعوا بالنذر . . فاحذروا ناراً قعرها بعيد وحرها شديد وعقابها جديد دار ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة ولا تفرج فيها كربة .

وقال عليه السلام في مقام آخر : حتى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر مقاديره وأُلحق آخر الخلق بأوله أماد السماء وفطرها وأرج الأرض وارجفها وقلع جبالها ونسفها واخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم وجمعهم بعد تفرقهم ثم ميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال وجعلهم فريقين أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء . فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره وخلدهم في داره حيث لا يظعن النزال ولا يتغير بهم الحال ولا تنوبهم الأفزاع ولا تنالهم الأسقام ولا تعرض لهم الأخطار . وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار وغل الأيدي إلى الأعناق وقرن النواصي بالأقدام والبسهم سرابيل القطران ومقتطعات النيران لا مدة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضي الخ » .

وإلى هنا نختتم الحديث عن المعاد وبه ننهي البحث عن الأصول العقائدية الخمسة الإسلامية ولنبدأ الآن بالبحث عن الفرائض العبادية وهذا البحث يشكل الفصل الثالث من هذا الكتاب الذي كان فصله الأول ، التعريف بالإسلام ، وفصله الثاني ، أصول الإسلام .

الفصل الثالث

العَبادات الإسلامية

ان الفرائض العبادية الإسلامية تعني تلك الفرائض التي يشترط فيها أن تكون مقترنة مع نية امتثال أمر الله بها والتقرب إلى مرضاته تعالى بأدائها منذ البدأ بها وحتى الإنتهاء منها ، وهي عبارة عن خمس فرائض : أولها : الصلاة ومقدماتها من غسل أو وضوء أو تيمم ، ثانيها : الصوم . ثالثها : الحج وما يشتمل عليه من مقدمات وأعمال كالغسل والإحرام . رابعها : الزكاة وفي ضمنها الخمس خامسها : الجهاد في سبيل الله تعالى . . . وتكون باطلة إذا لم يستحضر القائم بها نية الإمتثال في قلبه لحظة الإبتداء بها ، بخلاف سائر الواجبات مثل برّ الوالدين وصلة الرحم وحسن الجوار ، وغيرها فإنها تكون صحيحة ومقبولة وان غفل الآتي بها عن هده النية في حين الاتيان بها .

ولنبدأ بالحديث عن أول هذه الفرائض العبادية ، وهي الصلاة . . .

فالصلاة أول تلك الفرائص وجوباً في الإسلام فقد فرضت في نفس اليوم الذي بعث فيه محمد (ص) وقد صلى هو وعلي بن أبي طالب (ع) وأم المؤمنين خديجة (ع) صلاة الظهر من ذلك اليوم وجوباً .

وقد عبر النبي (ص) عن أهمية الصلاة في الشريعة الإسلامية بقوله المشهور . . « الصلاة عمود الدين أن قبلت قبل ما سواها وأن ردت رد ما سواها . . وقال أيضاً الصلاة معراج المؤمن . . ليس بين المسلم وبين أن يكفر الا ترك هذه الصلاة من ترك الصلاة فقد هدم

دينه » . إلى غير ذلك من أقواله الشريفة ونصوصه الصريحه في أهمية هذه العبادة وتأكد وجوبها . وانها لا تسقط عن المسلم بحال من الأحوال ما دام يملك الوعي والإحساس . . نعم لا تسقط في حال المرض ولا في السفر ولا حالات الإنشغال لكنها تخفف عنه بشكل يلائم القيام بها مع ظروفه وأحواله ففي السفر تقصر فتكون الرباعية ثنائية وكذلك في حالات الخوف والحرب . . . ويصح منه القيام بها وهو جالس أو متكيءٌ أو مستلقي أو مضطجع في حالات المرض التي يشق فيها عليه القيام والقعود . . والخلاصة هي أن الصلاة لا تترك ولكن يجوز الإتيان بها حسب الوسعة والقدرة والإستطاعة . كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾﴿ **ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** . . ﴾ .

والسبب في إعطاء الصلاة كل هذه الأهمية والتأكيد هو ما تشتمل عليه من فوائد وما يترتب عليها من آثار نافعة للإنسان . وقد نص القرآن الكريم على أهم تلك الفوائد والآثار ، فقال سبحانه : ﴿**ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾﴿**إن الانسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين** . . ﴾هذا بالنسبة إلى فوائدها الدنيوية ، وأما في الآخرة فقد صرح القرآن الكريم بأن ترك الصلاة من موجبات دخول النار ، فقال تعالى حكاية عن بعض أهل جهنم حين سئلوا : ﴿ **ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين** ﴾ . وبهذه الآية الكريمة استشهد الإمام امير المؤمنين (ع) في خطبته المعروفة حول الصلاة. فقال صلوات الله عليه : وتعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها وتقربوا بها فإن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً الا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سألوا ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين . . إلى ان

يقول (ع) ولقد شبهها رسول الله (ص) بالحمة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات فما عسى ان يبقى عليه من الدرن . وكان رسول الله نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة لقول الله سبحانه ﴿ وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه .

والخلاصة هي : ان الصلاة فرض الزامي وواجب عيني على كل مسلم ومسلمة في كل يوم خمس مرات . صبحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء من حين البلوغ الشرعي وإلى آخر العمر . وهي، أحد الأركان الخمسة التي يقوم عليها إسلام المسلم والتي يعتبر تركها عمداً من الجرائم الكبيرة التي لا تغفر بل هو على حد الكفر . . . نعوذ بالله من ترك الصلاة ونسأل الله التوفيق للدوام على اقامتها والحفاظ على ادائها والإنتفاع بآثارها وفوائدها في الدنيا والآخرة . . ويكفينا دليلاً على ضرورة اقامة الصلاة في كل الأحوال ان المسلمين الأولين كانوا يؤدنها حتى في ساحات الحرب وساعات القتال وهم على متون الخيل . وان الحسين عليه السلام اقامها يوم عاشوراء في ساحة الحرب بكربلاء ومعه اهل بيته ومن بقي من اصحابه وذلك تحت وابل من سهام الأعداء . . .

الثاني الصيام :

وهو عبارة عن الإمساك عن كل المفطرات المعروفة منذ طلوع الفجر الصادق وحتى الغروب الكامل بزوال الحمرة المشرقية عن الأفق الشرقي ، ومدة هذا الصيام هو شهر قمري كامل وهو شهر رمضان بالذات .

والصيام نظير الصلاة في كونه فرض عيني على كل مسلم

ومسلمة وأحد الأركان الإسلامية الخمس ولا يجوز تركه بدون عذر شرعي وهذا العذر ينحصر في حالتي السفر والمرض بشكل رئيسي ويجب قضائه بعد زوال العذر حسبما هو مفصل في كتب الفقه فراجع .

وأما الغاية من فرضه على الإنسان فهي تقوية ارادته أمام الشهواة وتمرينه على الصمود أمام الغرائز الجياشة والعواطف العارمة . كما نص القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين** ﴾ ، وفسر الصبر هنا بالصيام . وعن فوائد الصيام الصحية فقد ذكر الأطباء ان الصيام علاج لبعض الأمراض ووقاية عن البعض الآخر : وكلها بديهية ووجدانية اثبتتها التجارب ، والتجربة أكبر برهان .

والخلاصة التي لا شك فيها هي : ان للصيام فوائد كثيرة ومتنوعة ، منها صحية ومنها اخلاقية ، ومنها اقتصادية تعود إلى الفرد والمجتمع على السواء وقد لخص القرآن كل تلك الفوائد الكثيرة بكلمتين ، فقال تعالى : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم** ﴾ صدق الله العظيم . ولأهميّة فوائد الصوم في حياة الإنسان الفردية والإجتماعية نجد ان الله تعالى قد فرضه على الناس في كافة الشرائع السابقة ولا يزال يلتزم به ملل الأرض وطوائف العالم بكيفيات مختلفة في ايام معينةٍ من كل عام .

الثالث الزكاة :

الزكاة هي الضريبة المالية الرئيسية في الشريعة الإسلامية

وتجب على الغَّلاة الأربعة والأنعام والنقدين من الذهب والفضة إذا بلغت النصاب المعين حسبما هو مفصل في كتب الفقه الإسلامي .

ويتفرع منها الضريبة الثانية وهي :

الخمس يعني من الخمسة واحد من كل ما يغنمه المسلم في دار الحرب ومن أرباح مكاسبه إذا زادت تلك الأرباح عن مؤنة سنته .

وهاتان الضريبتان تشكلان العمود الفقري في الاقتصاد الإسلامي واهم واردات الدولة الإسلامية . ومصرفهما سد حاجات الفقراء واقامة المشاريع العامة وفي الدفاع عن البلاد الإسلامية والدعوة للإسلام وقد ذكرها القرآن الكريم وفصلها الفقهاء .

وفي الإسلام ضريبة ثالثة تسمى :

زكاة الفطرة ، وهي صدقة واجبه على كل مسلم عن نفسه وعمن يعول بهم ووقت وجوبها هو عيد الفطر من كل سنة . وتسقط كل هذه الضرائب عن الفقير طبعاً ، والفقير في عرف الإسلام هو من لا يملك نفقة سنة واحدة لنفسه وعياله لا بالفعل ولا بالقوة أي لا نقداً ولا تدريجاً .

ومقدار زكاة الفطرة هو (مد) من الطعام الغالب على قوت السنة عن كل شخص تدفع عيناً أو قيمة .

والمد : يقارب وزن ثلاث كيلو غرامات بالوزن العالمي المعروف .

وعلى ذكر الواردات المالية في الدولة الإسلامية التي أهمها الزكاة والخمس والفطرة كما ذكرنا نذكر بعض الواردات الأخرى . فمنها الكفارات .

الكفارات . . . وهي العقوبات المالية على بعض المخالفات لأحكام الإسلام مثل الإفطار في شهر رمضان والصيد في الإحرام أو غيرها حسبما هو مفصل في الكتب الفقهية والرسائل العملية

ومن تلك الواردات أيضاً . . .

الجزية . . . وهي ضريبة محددة تؤخذ من أهل الذمة أي أهل الكتاب الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية ، وهي تعتبر منهم بدلاً عن الخدمة العسكرية والجهاد الذين لا يكلف بهما الذميون . أما إذا تطوع أحدهم بالجهاد أو الدفاع أو أي خدمة عسكرية أخرى فإنه يعفى عن إعطاء تلك الجزية حينئذ .

ثم ان الجزية تؤخذ عن الرجال دون النساء والأطفال ومن الأثرياء والعاملين دون الفقراء والمرضى كما لا تؤخذ من رجال الدين .

وأما مقاديرها فنسبية وبسيطة على كل حال فالرجل الثري كان يؤخذ منه (٤٨) درهماً في السنة . والمتوسط الحال (٢٤) درهماً . والرجل العادي (١٢) درهماً في كل عام .

وفي مقابل ذلك يحصل الذمي على كل رعاية من قبيل الضمان الإجتماعي في الدولة في أحوال المرض أو العجز أو الشيخوخة أسوة بباقي أفراد الأمة .

هذا كان واقع الجزية العملي في أيام الحكم الإسلامي ، وهو كما ترى واقع قائم على العدل والحق يتسم بالإنسانية والعطف وحفظ الكرامة الإنسانية بالسبة إلى الذميين .

وكلمة (ذمي) مأخوذة من الذمة أي المسؤولية والإلتزام والذمي منسوب الى الذمة أي أنه في مسؤولية الدولة الإسلامية

وتحت رعايتا والتزامها به ، فهي مسؤولة عن حقوقه في حياة حرة كريمة .

وآخر ما نذكره هنا في قائمة واردات الدولة الإسلامية ، هو :

الخراج . . . وهو أيضاً نوع من الضريبة تؤخذ بنسب معينة على الأرض أو العقار التي يملكها الذمي . ويعتبر بدلاً عن الزكاة والخمس المفروضين على المسلمين والذين لا يصح أخذهما من الكتابي لعدم إيمانه بالأصلين الأساسيين للإسلام التوحيد ونبوة محمد (ص) فلا يفرض الفرع مع عدم وجود الأصل . ولا يصح العمل العبادي إلا بعد توفر الإيمان الصحيح لكي تتأتى نية القربى في ذلك العمل ، وعلى كل حال فهذه الموارد المالية هي أهم مقومات الخزانة الإسلامية ونظامه الإقتصادي وتوازنه المالي .

وإلى هنا نختتم الحديث عن الركن الثالث العبادي وهو الزكاة وتوابعه لنبدأ بالحديث عن العبادة الرابعة والركن الإسلامي الرابع وهو :

الرابع الحج :

الحج . . . وهو كما نعلم عبارة عن التوجه إلى مكة المكرمة وزيارة بيت الله الحرام والقيام بأعمال معينة في أيام معدودة من شهر ذي الحجة من كل عام .

ويجب الحج على كل مسلم يملك الإستطاعة المالية والبدنية، يجب عليه في العمر مرة واحدة فقط وله أن يتطوع ما يشاء من المرآت وتركه عمداً من الذنوب العظام في نظر الإسلام وفي الحديث الشريف ان تارك الحج عن عمد يحشر يوم القيامة في زمرة

الكافرين .

والحج عبادة عظيمة لأنها تكلف جهداً مالياً وجسدياً . ولأنها تشتمل على مظاهر توحي للمسلم بعظمة الإسلام ووحدة المسلمين على اختلاف ألوانهم وعناصرهم وأقطارهم ولغاتهم وغير ذلك .

كما أنها تعطي صورة عن مشاهد يوم القيامة ومواقف الناس بين يدي رب العالمين حيث يتجردون عن كل مظاهر التمايز المادي والتفاوت الطبقي والاجتماعي .

ويمكن أن يستفاد من الحج كمؤتمر إسلامي سنوي عام يبحث فيه المسؤولون المسلمون عن شؤون العالم الإسلامي ومشاكل المسلمين ، ولكن المسلمين مع الأسف لا نراهم يستفيدون منه ذلك ولا غيره من الثمرات الكبيرة التي يمكنهم جنيها من الحج .

ومن الجدير بالذكر ان الحج سنة قديمة من عهد ابراهيم الخليل (ع) الذي بنى الكعبة ثم أمره الله تعالى أن يؤذّن في الناس بالحج . وقد بقي عرب الجاهلية ملتزمين بالحج رغم تركهم لكل المراسيم الدينية الأخرى وحجهم هذا أيضاً كان بشكل محرَّف ومشوَّه ولكنهم على كل حال كانوا يقصدون مكة أيام الموسم في شهر ذي الحجة كل سنة ويطوفون حول الكعبة وينحرون الإبل ويقومون بأعمال أخرى في الوقتَ الذي كانت أصنامهم البالغة ثلاثمائة وستين صنماً قد نصبت فوق سطح الكعبة وحولها يعبدونها أو يتقربون بها إلى الله سبحانه الأمر الذي يدل على أنهم كانوا يعتبرون الكعبة رمزاً لأمجادهم وأعمال الحج طقوساً تقليدية وعادات وراثية فقط وكان من عاداتهم عند القيام بأعمال الحج انهم يتجردون من ثيابهم كلها رجالاً ونساء ويطوفون حول الكعبة عراة الأبدان تماماً وهم يصفقون بأيديهم ويصفرون بأفواههم . وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك

العادة الجاهلية بقوله تعالى : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ ولما جاء الإسلام أعاد الحج إلى واقعه العبادي الصحيح وطهر الكعبة والبيت الحرام من الأصنام والأوثان والموبقات الأخرى وعلَّم النبي (ص) الناس مناسك الحج بنفسه وذلك في الحجة الأخيرة التي حجها رسول الله في جمع غفير من المسلمين في السنة الأخيرة من حياته (ص) ويقال لها حجة الوداع . وفي طريق عودته إلى المدينة منها وعند الغدير المعروف (بغدير خم) نزل عليه الوحي من الله سبحانه بنصب علي بن أبي طالب إماماً وخليفة من بعده على الأمة بقوله تعالى : ﴿ **يا ايها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ فجمع النبي (ص) المسلمين هناك وكان عددهم يبلغ المائة والعشرين الفا وقام فيهم خطيباً استعرض في خطبته شرائع الإسلام واكدها وحذرهم من الفتن وذكرهم بتضحيات علي (ع) وجهاده البطولي في سبيل انتشار الإسلام وتركيز دعائمه ثم قال ايها الناس الست أولى بالمؤمنين من انفسهم . . قالوا بلى . فأخذ بعضدي علي ورفعه أمام الناس حتى بان بياض ابطه وقال : « فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم والي من والاه وعادي من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيثما دار » . وقام في ذلك اليوم حسان ابن ثابت شاعر النبي (ص) وانشد الأبيات المعروفة :

يناديهِمُ يوم الغدير نبيهم	بخم واكرم بالنبي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاديا
ألاهُك مولانا وأنت ولينا	ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فانني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أتباع صدق مواليا
هناك دعا اللهم وإلى وليه	وكن للذي عادا علياً معاديا

فخص بها دون البرية كلها علياً وسماه الوزير المواخيا

وجاء الشعراء بعد ذلك فنظمو واقعة يوم الغدير وما حدث بعدها فقال الكميت (رض) :

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان له الولاية لو اطيعا
ولكن الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً منيعا
ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم ار مثله حقاً أضيعا

أشار الكميت رحمه الله في البيت الأخير إلى الانقلاب الذي حدث بعد وفاة الرسول (ص) واغتصاب السلطة من خليفته الشرعي علي بن أبي طالب (ع) ذلك الإنقلاب المعروف بـ « يوم السقيفة » ويقصد بالسقيفة تلك المظلة أو البيت المصنوع من سعف النخيل كان لبني ساعدة فكان يعرف بسقيفة بني ساعدة . وهي التي اجتمع فيها أقطاب المؤامرة وقادة الإنقلاب وبايعوا أبا بكر ابن أبي قحافة ، ثم زحفوا باتباعهم نحو المدينة فاحتلوا مسجد الرسول وسيطروا على الأمور . فكان حادث السقيفة أول خلاف وانشقاق وقع بين المسلمين بعد الرسول (ص) والذي ادى بطريق مباشر أو غير مباشر إلى كل الخلافات والمشاكل والإنقسامات التي وقعت بعد ذلك في صفوف المسلمين .

وبعد هذه الجولة السريعة خارج حدود الموضوع نعود إليه ثانياً .

فنقول ان الحج سفر إلى الله تعالى وطبيعة هذا السفر تفرض ان يكون الإنسان فيه على أتم تهيأ واستعداد نفسي وتوجّه إلى الأهداف السامية التي فرض من أجلها هذا السفر ، وذلك بأن تكون النفقة من مال حلال ومزكي . والنية خالصة ومزكاة من الرياء وغيره

من الأغراض الفاسدة ، وأن يقف في تلك المواقف تائباً من ذنوبه توبة نصوحاً ليكون أجره على الله تعالى بالمغفرة والقبول ، ويعرف ذلك كله من الحاج بسلوكه وأعماله وعلاقاته مع الناس بعد رجوعه ، فإن بدل أعماله السيئة إلى أعمال صالحة أو إذا ازداد صلاحاً ومعروفاً في أعماله وأفعاله فهو حينئذ لا شك من الحجاج المقبولين وإلا فالعكس بالعكس .

الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة هو :

الجهاد . . . وهو مأخوذ لغة من الجهد ، أي التعب الشديد والعمل الشاق المجهد ، والإجتهاد في الفقه هو بذل الفقيه جهده إلى أقصى طاقته لإستنباط الحكم الجزئي من القواعد الكلية والأصول العامة .

والجهاد من أعظم أركان الإسلام ومقوماته الأساسية وهو المحك الدقيق الذي يكشف المسلم الصحيح الصادق الإيمان عن غيره ، قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ الخ . .

والإسلام كله في الحقيقة جهاد، أي لا يحصل ولا يتحقق على الوجه الأمثل إلا ببذل الجهد في تحصيله وهو أمر طبيعي لأن الإسلام عبارة عن مجموعة من الفضائل والكمالات والمثل الإنسانية العليا ، والفضيلة كما يقال ارتفاع وصعود والصعود صعب ومتعب كما أن الرذيلة انحدار وهبوط وهو سهل يسير . وقد أكد هذه الحقيقة رسول الله (ص) في الحديث الوارد عنه (حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات) .

وبناءاً على هذه الحقيقة يمكننا أن نلخص الجهاد الإسلامي إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول ـ الجهاد الفكري :

ونعني به إجهاد الفكر لتحصيل العقائد الإسلامية والإيمان بأصوله الخمسة التي لا يكفي اعتناقها تقليداً ومتابعة بل يجب الإيمان بها عن قناعة ويقين ، وهي عبارة عن : ١ ـ التوحيد ، ٢ ـ العدل ، ٣ ـ النبوة ، ٤ ـ الإمامة ، ٥ ـ المَعاد ، حسب معانيها ومدلولاتها التي سبق بيانها تفصيلاً . وكلها أمور غيبية لا ترى بالعين ولا تسمع بالأذن ولا تلمس باليد ولا تُحس بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة وإنما تعرف وترى وتلمس بالفكر وأعمال العقل والتأمل بعد جهد وجهاد وإجهادٍ للفكر والعقل . قال تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . . . ﴾ وقال تعالى أيضاً : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . . ﴾ وقال الرسول (ص) فيما روي عنه (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وقال أمير المؤمنين (ع) عن الله سبحانه (لا تراه العيون بمشاهدة الأبصار ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان لا يُحس بالحواس ولا يقاس بالناس) .

أجل إن العقائد الفاسدة يلتقطها الفكر بسرعة وسهولة لأنها تأتي عن طريق الحواس الظاهرية والمشاهدة فما أيسر على الإنسان من أن ينكر وجود الله ، لأنه لا يرى شيئاً في هذا العالم اسمه الله ، ولا يسمع صوته ولا يلمسه بيده فإذاً لا وجود له ، ولكن إذا استعمل الحاسة السادسة وهو العقل وأجهد فكرةُ بالتأمل والتفكر في الأدلة

والبراهين والآثار وغيرها يعرف تماماً بأن الله موجود قطعاً وإن لم يره بعينه بل يعرف ان الله سبحانه محال ان تراه العيون او تتصوره الأوهام .

وكذلك سهل على الإنسان أن ينكر عدل الباري سبحانه وحكمته لأنه يرى العالم حوله مليء بالمظالم والاعتداءات والمفاسد والمشاكل دون أن يرى عقاباً للمسيئين ولا ثواباً او تعويضاً للمظلومين ولا انتقاماً من المعتدي ولا جبراً لخواطر المعتدي عليهم فإذاً لا عدل ولا حكمة في الكون ، ولكن إذا أعمل فكره وعقله وأجهدهما في الدرس والتحليل يعرف تماماً معنى العدل والحكمة الإلهيين بالنظر إلى حرية الإنسان من جهة وجهله وسوء تصرفه وعدم امتثاله لشريعة الله من الجهة الأخرى ، قال تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا . . .** ﴾ .

ثم أن هذه الحياة ما هي إلا فترة امتحان واختبار ومجال لإظهار الناس ما في نفوسهم من طيب أو خبث ومدى إطاعتهم لأوامر الله ، وليست هذه الحياة للعقاب أو للثواب فالحياة الآخرة التي تأتي بعد هذه الحياة هي دار الجزاء قال الإمام علي (ع) ألا وأنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل) . هذا ومن جهة اخرى لو عمل الناس بشريعة الله واقاموا دينه وطبقوا نظامه واحكامه لما بقي في العالم ظلم بلا عقاب ولا ظالم بلا قصاص .

وهكذا الحال بالنسبة الى النبوة حيث لا ترى ملكاً ينزل من السماء بالوحي فما أسهل عليك أن تنكر النبوة والوحي ولكن إذا أمعنت النظر وفكرت طويلاً وتصفحت الأدلة والبراهين وعرفت معنى الملك والوحي وأطلت التأمل في المعاجز التي ظهرت على أيدي

الأنبياء لأيقنت وآمنت بأن الوحي حق وواقع والأنبياء صادقون . . . ولكن بعد جهد طويل للفكر والعقل حتى تصل إلى الإيمان بذلك كله .

والإمامة أيضاً كذلك فإن الإيمان بأن الإمامة أخت النبوة ومنصب إلهي يمنحه الله لمن يختاره من عباده الذين يعلم لياقتهم لهذا المنصب الخطير الذي هو امتداد لمهام النبوة ومسؤولياتها ، ثم الإيمان بأن الإمام الشرعي والخليفة الحقيقي لرسول الله (ص) ، بعده إنما هو علي بن أبي طالب (ع) وأنت ترى أبا بكر على منبر الرسول من بعده ، ليس بالأمر السهل السريع الحصول بل يتوقف على جهد وإجهاد للفكر بالتأمل والبحث والإطلاع على الأدلة العقلية والنقلية عن الكتاب والسنة ، ثم الإطلاع الكامل على شخصية علي بن أبي طالب (ع) الكاملة المتكاملة من كل الجهات وقياسها مع شخصية أبي بكر وغيره من الصحابة الذين يختلفون عن علي في اكتمال الشخصية اختلاف الليل مع النهار والثري والثرايا ، بعد ذلك كله وأكثر من ذلك حتى تؤمن بأن هذا الذي على منبر الرسول بعد وفاته هو غاصب مغتصب والخليفة الشرعي هو علي بن أبي طالب رغم جلوسه تحت المنبر أو في بيته مدة تقارب الخمسة والعشرين سنة ، ولهذا السبب قال الإمام جعفر الصادق (ع) : (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو ولي امتحن الله قلبه بالإيمان) .

وأما المعاد ـ فهو أكثرها إمعاناً في الغيب والغموض وأكثرها احتياجاً إلى الجهاد الفكري والإجتهاد في البحث والتأمل حتى يحصل الإيمان به والجزم بوقوعه ، أما إنكاره فسهل يسير حيث لم نرى ميتاً خرج من قبره ولا سمعنا صراخاً من قبر ولا غير ذلك من الآثار المادية المحسوسة للحياة بعد الموت فما أسهل من أن نقول

مع القائلين :

أموتُ ثمَّ بعثٌ ثمَّ حشرٌ حديثُ خرافةٍ .يا أمَّ عمري
أيعجز أن يكفَّ الموت عني ويحيني إذا رمت عظامي
أيوعدنا بن كبشة إن سنحيا وكيف حياة اشلاء وهام
وإن كنت قدأخبرت عن مبعث لنا أحاديث لهو تجعل القلبَ ساهيا

ولكن إذا علمنا متى سيكون المعاد ولماذا يكون المعاد ومدى إمكان تحقق المعاد ومن الذي أخبر بحتمية وقوع المعاد . . وغير ذلك من الأمور لعلمنا وآمنا وأيقنا وصدقنا بالحياة الأخرى والمعاد والحساب والثواب والعقاب وذلك بعد جهد جهيد وأعمال الفكر والعقل ودراسة طويلة وبحث وتنقيب .

وإلى هذه الحقيقة ، أعني حقيقة أنَّ الإيمان بالأصول العقائدية الإسلامية لا يحصل بسهولة وسرعة بل يحتاج إلى جهد فكري لفترة زمنية طويلة .

إليها ألفت الله سبحانه أنظار المسلمين الأوائل الذين ظنوا أنهم قد أكتمل إيمانهم بمجرد دخولهم في الإسلام والعمل بشعائره ، فقال الله في ردهم : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ فكلمة (لمَّا) في الآية الكريمة تدل على نفي السهولة والسرعة عن حصول الإيمان بالعقائد الإسلامية في قلب الإنسان ، وقال عن أكثرهم عز من قائل :

﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

لذا فإن الرسول الأكرم (ص) في بدء الدعوة وأوائل البعثة المباركة لم يطلب من الناس أن يؤمنوا بلا الاه إلا الله ، على نحو

اليقين بل طلب منهم أن يقولوا لا إله إلا الله . . . قال (ص) : قولوا لا إله إلا الله ، تفلحوا . . وذلك بسبب أن طلب الإيمان والأمر بالاعتقاد فوراً . هو طلب مستحيل وأمر محال . لا يصدر من العاقل الحكيم .

ولكن بعد ذلك صار الوحي ينزل عليه . . أولاً بالحث على تحصيل الإيمان بالقلب فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله . . . ﴾ ثم بالمدح والثناء للذين جاهوا وتوصلوا إلى الإيمان والعقيدة ، فقال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . . . ﴾ فالإيمان بالغيب هنا يعني بالأصول العقائدية من التوحيد والنبوة والمعاد وغيرها .

والخلاصة هي . . . أن الجهاد الفكري في سبيل الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته وسائر صفاته ثم بالنبوة والوحي ثم بالإمامة وهي القيادة العامة والنيابة المطلقة عن النبي بعد وفاته حسب شروطها ومؤهلاتها ثم بالحياة الأخرى والمعاد إلى الله بعد هذه الحياة لملاقاة جزاء الأعمال . . وغيرها من الأمور الغيبية المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة الشريفة المتواترة مثل معاجز الأنبياء (ع) ووجود الجن والملائكة والروح ووو ، كل ذلك ضروري للإنسان المسلم الذي يريد أن يكمل إسلامه ويكون من السعداء في الدنيا والفائزين في الآخرة فيجب أن يوجه عنايته إليها ويهتم بتحصيلها . وهذا لا يعني أن يترك العمل فلا يصلي ولا يصوم ولا يتجنب المحرمات خلال مدة السعي والجهاد الفكري إلى أن يصل إلى الاعتقاد الراسخ واليقين الجازم . . كلا ليس الأمر كذلك بل أن الإيمان البدائي والتصديق السطحي والإعتراف اللفظي يكفي في وجوب الإتيان بالأعمال وصحتها منه فترة السعي والجهاد . . .

ويعني تحديد الشهوات وتنظيم الرغبات والأهواء وكبح جماح العواطف النفسية في إطار المصلحة الشخصية والحقوق الإجتماعية والمقررات الشرعية بقوة الإرادة وصلابة العزم، وذلك هو الجهاد الأكبر حسب تعبير النبي (ص) حيث قال للمسلمين العائدين من المعركة والقتال ضد المشركين، قال لهم: (لقد فرغتم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر فقالوا: وما هو؟ قال: الجهاد ضد شهوات أنفسكم الأمارة بالسوء)، والواقع هكذا فإن الوقوف في وجه تيار الشهوة وكبح جماح العاطفة الجياشة الثائرة أمر صعب وشاق غير أنه عذب النتيجة وطيِّب الثمرة وحسن العاقبة، أما الانحراف معها والإنقياد لها والإسترسال وراءها خطر المآل يؤدي إلى الشقاء والكوارث في الحياة الدنيا وإلى النار والعذاب الأليم في الحياة الآخرة.

والخلاصة هي: أن الإنسان يجب عليه أن يكون دائماً بحال حذر واحتياط من دوافعه العاطفية ورغباته وهواياته ومشتهياته النفسية يسايرها ويستجيب لها بتحفظ وحساب تحت مراقبة من العقل والدين وفي حدودها المفيدة ومقاديرها النافعة ومواردها المشروعة ثم يوقفها عند تلك الحدود ولا يفسح لها المجال للإنطلاق وراء ذلك الحد أبداً قال الله تعالى: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ وقال تعالى أيضاً: ﴿**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**﴾ وقال تعالى: ﴿**ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه**﴾ ومعلوم أن حدود الله سبحانه وتعالى هي الإطار العام لسلوك الإنسان مطلقاً مع نفسه ومع الآخرين. وهذا الإطار يتفق ويتحد تماماً مع إطار العقل

والمصلحة الحقيقية للإنسان بدون زيادة ولا نقصان ، وكل إطار يضعه الإنسان للسلوك الفردي والإجتماعي غير إطار الإسلام والقرآن فهو إطار مزيف وسخيف لا يضمن السلامة للإنسان ولا يحقق له السعادة والخير ، لأن الله تعالى هو صانع الإنسان والحياة فهو أعرف من غيره بمصالحه ومفاسده وما يصلحه وما يضره وكل صانع أعرف من غيره بمصلحة ما صنع فمهندس الكهرباء مثلاً أعرف بشؤون الكهرباء من مهندس البناء وهذا أعرف بشؤون البناء والتعمير من مهندس الكهرباء مثلاً . وعلى هذا القياس ، فموازين الأخلاق ومقياس السلوك ونظم الحياة الإنسانية يجب أن تؤخذ من خالق الإنسان والحياة لا غير . وهو الله سبحانه وتعالى وبواسطة النبي الأكرم محمد (ص) وقرآنه الكريم .

معنى التقوى :

والتحديد في الإطار المذكور ، أعني تحديد الإنسان لعواطفه وشهواته ودوافعه النفسية بحدود الله تعالى في إطار دينه وشريعته الغراء ، هو المسمى في القرآن والسنة باسم (التقوى) قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ وقال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه في نهج البلاغة . . (واعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز وأن الفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه) .

وقال عليه السلام أيضاً في مقام آخر (إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق) .

أجل إن ثمراة التقوى الذي هو عبارة عن الجهاد النفسي أي الجهاد بتحمل مرارة حرمان بعض اللذات وفقدان بعض الرغبات . . ثمراته كثيرة بل هومنبع الخيرات ومنطلق السعادات للإنسان في كل زمان ومكان .

ومما لا شك فيه أن التربية الصالحة والبيئة الصالحة تعنيان الإنسان في هذا الجهاد الأكبر وتخففان عنه كثيراً من مشقته وصعوبته . ولذا نجد الشريعة الإسلامية تضع النظم والتعاليم لإيجاد التربية الصالحة والمجتمع الصالح وتُعنا بهما عناية خاصة في تشريعاتها وتوصياتها ، وقد سبق في موضوع الصيام أن من أهداف فرضه على الناس هو تقوية الإرادة وإيجاد الملكة والصمود أمام ضغط الشهوات وتيار الغرائز .

وأما فريضة الزكاة والخمس وغيرهما من الفرائض المالية فإن أهم الأهداف منها مكافحة شهوة حب المال والتطرف في التعلق بالمادة المعبر عنه بالبخل .

إذ أن هذه الغريزة إذا سيطرت على الإنسان تفقده لذة الحياة والكرامة الإنسانية وثواب الله في الآخرة حيث جاء في الحديث عن النبي (ص) قال (البخيل بعيد عن الناس بعيد عن الله بعيد عن الجنة) وعنه أيضاً صلى الله عليه وآله قال : (البخل شجرة أصلها في جهنم وأغصانها متدلية في الأرض والبخيل متعلق بغصن منها ولا بد أن يجذبه إليها) أي إلى أصلها في جهنم .

وقد ورد في أخبار أهل البيت (ع) نهي شديد عن مجالسة البخيل ومصاحبته بل وحتى استشارته وأخذ الرأي منه . أما عن الأول فقد جاء في الخبر عن الإمام زين العابدين (ع) قال : « ولا تصاحب البخيل فإنه يقطع بك في ماله وأنت أحوج ما تكون إليه » وعن الثاني قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ولا تدخلن في مشورتك بخيلا فإنه يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر » .

والخلاصة : هي أن غريزة حب المال من أخطر الغرائز النفسية إذا سيطرت على إرادة الإنسان وتفكيره .

ولذا يجب تحديدها بالحدود المشروعة والمعقولة ومكافحة طغيانها ببذل المال طوعاً أو كرهاً ففرض الإسلام على المسلم الزكاة والخمس تؤخذ منه كرهاً إن لم يعطها طواعية وندب الإسلام إلى الصدقات الطوعية ورغبَّ فيها وشوق إليها بما كشف عنه من الثواب العظيم عند الله للمتصدقين قال الله تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ وفي الحديث الشريف : (إن الرجل يتصدق بصدقة فيربيّها الله كما يُربِّي أحدكم فلوه حتى يلقاها يوم القيامة كجبل أحد . . .) وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً : (إن الصدقة تدفع سبعين بلية من بلايا الدنيا مع ميتة السوء) وعن أمير المؤمنين (ع) : (إن صدقة السر تطفأ غضب الرب وصدقة العلانية تدفع ميتة السوء) وإلى غير ذلك من الآيات والأحاديث والأخبار في فضل الصدقات والحث على بذل المال في موارده والتصدق به على مستحقيه كل ذلك لأجل كبح جماح هذه الغريزة الخطرة وهي غريزة الحرص وحب المال ولأجل ترويض النفس على البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله ، الذي هو عدل الجهاد بالنفس أي الجهاد الجسدي الذي سيأتي الكلام عليه ، أجل أن الجهاد بالمال مقترن بالجهاد بالنفس في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز منها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .** ﴾

وسمي إنفاق المال في سبيل الله ووجوه البر والإحسان « صدقة » لدلالته على صدق الإيمان والإخلاص من المتصدق غالباً

فالصدقة مشتقة من الصدق وهي دليل الإخلاص لأن المال من أحب الأشياء إلى الطبع البشري فإذا سخا به وأنفقه لصالح غيره فإن ذلك يكشف عن أن الشخص مسيطر على نفسه وشهواتها منتصر بإرادته العقلية على عواطفه الطبيعية . قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ . . وبهذا القدر نختم الكلام حول الجهاد النفسي الذي يعني السيطرة على العواطف والأهواء وتحديدها بحدود العقل والشرع .

القسم الثالث - الجهاد الجسدي

ونبدأ بالكلام على القسم الثالث والأخير من أقسام الجهاد الإسلامي العام وهو الجهاد الجسدي .

وهذا الجهاد يعني إجهاد الجسم بالحركة والعمل في سبيل الحفاظ على كيان الأمة الإسلامية ووحدتها وسلامة أراضيها وحرية الدعوة إلى الإسلام وإقامة نظامه وأمن مواطنيه على حقوقهم المشروعة . وهذا الجهاد تارة يكون بالقول والكلام فقط وأخرى يكون باليد واستعمال القوة والكفاح المسلح وذلك حسب اختلاف الظروف ومقتضيات الحوادث وتبعاً للقدرة والإمكانيات قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . . ادفع بالتي هي أحسن . .** ﴾ وقال الرسول (ص) : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وقال الإمام علي (ع) : « أأمر

بالمعروف تكن من أهله وانكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله بجهدك وخض الغمرات إلى الحق وجاهد في الله حق جهاده ولا تأخذك في الله لومة لائم » .

الأمر بالمعروف :

فأما الجهاد باللسان فهو المعبر عنه (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو واجب على كل مسلم ومسلمة) . قال النبي (ص) : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .

يجب على كل مسلم أن يدعو غير المسلم إلى الإسلام وأن يأمر المنحرفين من المسلمين بأن يصححوا انحرافهم . وبعبارة أخرى فرض كل مسلم أن يكون داعياً للإسلام بالنسبة إلى غير المسلمين ومراقباً على تطبيق الإسلام والعمل باحكامه بالنسبة إلى المسلمين ، وهذا الفرض مشروط بأن يكون المسلم ذاته عارفاً بالإسلام وعاملاً به . وإلا فقد يدعو إلى ما ليس من الإسلام ويأمر بغير الواجب وينهى عما ليس منكراً أو يأمر بما لا يعمل هو به وينهي عما لا ينتهي هو عنه فيضر ويفسد ، كما يشترط أيضاً أن يعتمد أسلوب اللين واللطف في الدعوة أو الأمر ويكلم الناس على قدر فهمهم وعقلهم لكي يقربوا منه ويتأثروا بما يقوله كما ورد في الحديث الشريف : (يسروا ولا تعسروا وقربوا ولا تنفروا) .

والخلاصة هي : إن الله سبحانه وتعالى لا يكتفي من الإنسان بأن يكون بذاته مؤمناً ومسلماً ، بل يجب عليه أيضاً أن يدعو الآخرين للإسلام والإيمان ، كما أن سبحانه وتعالى لا يرضى من الإنسان أن يعمل بذاته ويقوم بنفسه بفرائض الإسلام وأحكامه فحسب بل يفرض عليه أيضاً أن يأمر غيره بأن يقوم بتلك الفرائض وينهى غيره عن ارتكاب المخالفات لأحكامه . قال سبحانه وتعالى :

﴿ **والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ وبهذه المسؤولية المشتركة والرقابة العامة ينتشر الإسلام ويطبق النظام ويسود القانون وتعم الفضائل وتختفي الرذائل . . .

أجل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستقر الأمن ويعم الأمان وتهنأ الحياة ويزدهر المجتمع بالخير والرفاه . لذلك حذر النبي (ص) المسلمين من التهاون بهذه المسؤولية وترك القيام بهذا الواجب فقال (ص) : « لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم » وكشف في حديث آخر عن أنَّ التهاون بهذا الواجب يؤدي إلى عواقب خطيرة جداً فقال (ص) : « كيف بكم إذا فسق شبابكم وفسدت نساءكم وتركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالوا أو يكون ذلك يا رسول الله قال : نعم وأكثر من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، قالوا : أويكون ذلك يا رسول الله قال : نعم وأكثر من ذلك ، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً . . . » . وهذه الظاهرة يعبر عنها بالإصطلاح الحديث بموت الضمير . . . وهي علامة تدهور المجتمع إلى أسفل حضيض وأحط درك من اللاأنسانية واللاأخلاقية ، وبداية نهايته وانهياره المادي والمعنوي ، حيث يحدثنا القرآن الكريم عن سبب انهيار الأمم السالفة فيقول« وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . . . » ويشبه رسول الله (ص) المجتمع بقوم ركبوا في سفينة فأراد بعضهم أن يثقب في مكانه الذي هو جالس فيه ثقباً فإن منعوه من ذلك نجا ونجوا وإن تركوه يفعل ما يشاء هلك وهلكوا معه .

وبالتالي نؤكد القول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد باللسان وخدمة إجتماعيه هامة وعبادة شريفة تكسب الإنسان

أجراً كبيراً ، ولقد قال الرسول الأكرم (ص) لعلي (ع) « لئن يهدي بك الله شخصاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس . . . » .

وأما الجهاد باليد :

فهو يعني الجهاد المسلح واستعمال السلاح ضد أعداء الإسلام وأهله وأرضه أولأجل العمل به وتنفيذه ، فالبلاد الإسلامية عبارة عن كل قطر وبلد يعلن أهله اعتناق الإسلام ويرتفع فيه الآذان وحينئذ يجب على كل مسلم أن يدافع عن ذلك البلد خطر كل فئة منشقة خارجة عن الإسلام وعلى نظامه وأحكامه في الداخل سواءاً كانت تلك الفئة من الحكام أو المحكومين ، لأن السيادة في المجتمع الإسلامي هو للقانون فقط ولا يطاع الحكام إلا ما داموا يحكمون بالقانون الإسلامي ويطبقونه فإذا خرجوا عنه يجب على الأمة إعادتهم إليه بكل الوسائل الممكنة حتى بالسيف .

ومما يذكر شاهداً لهذا ما هو معروف من أن الخليفة الأول أبا بكر بعد أن بويع خطب خطبة قال فيها : (إن لي شيطاناً يعتريني فإذا زغت فقوموني) فقام إليه بعض المسلمين وقال : (إن لم تستقم قومناك بحد السيف . . .) وقال سبحانه : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ وقياماً بهذا الواجب قام المسلمون على الخليفة الثالث عثمان بن عفان وحكومته لما انحرفوا عن نظام الإسلام وخالفوا أحكامه وظلموا العباد وأفسدوا في الأرض ، ولما أبى أن يستقيم قتلوه ، وإذا تمردت فئة من المجتمع على القانون وخرجت على النظام وحكامه الشرعيين فكذلك يجب على الأمة إعادتها ألى حظيرة الإسلام والجماعة الإسلامية بكل الوسائل أيضاً حتى بالسيف إذا اقتضى الأمر كما فعلت الأمة بقيادة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بالفئة الناكثة أصحاب الجمل وبالفئة

الباغية أصحاب معاوية وبالفئة المارقة أهل النهروان ، هذه الفئات الثلاث التي حاربها الإمام علي عليه السلام لما شقت عصا الطاعة وتمردت على النظام الإسلامي وحكومته الشرعية .

ومرجع ذلك كله إلى قوله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** . . . ﴾ وإلى قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ . والى قوله تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ . ومعلوم أن اولياء الأمر أنما تجب اطاعتهم اذا كانوا ملتزمين باحكام الإسلام ويأمرون بها . وإلا فلا طاعة لهم على الناس بل يجب على الناس اصلاحهم اذا امكن أو ازالتهم عن مركز السلطة . إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . . » .

وبما أن الجهاد فرض عبادي وواجب اجتماعي لذلك فلا يصلح إلا بنية التقرب إلى الله ، وقصد الدفاع عن مصلحة الإسلام العليا بعيداً عن كل قصد آخر غيره أو تحيز أو تكتل في إطارات أخرى ، وبعد إحراز القصد الإسلامي المحض يجب أن يكون التحرك والعمل الجهادي بأمر من المسؤول الشرعي الأعلى وتحت قيادة إسلامية حكيمة وحينئذ فقط يتحقق الجهاد حسب المفهوم الإسلامي ويصدق على من يقتل فيه صفة (الشهيد) حسب الإصطلاح الإسلامي المعبر به عن كل مسلم يقتل في سبيل الله في ساحة معركة شرعية . ويخصص بأنه لا يغسل ولا يكفن وإنما يصلي عليه فقط ثم يلّف بثيابه التي استشهد فيها ويدفن ليحشر يوم القيامة على الهيئة التي قتل ودفن عليها فتشهد له أمام أهل المحشر بأنه قتل

في سبيل الله تعالى .

ولذلك سمي شهيداً . . . أي تشهد له دمائه المسفوحة وثيابه المضرجة بالدماء والتي يبعث بها من قبره أنه شهيد . . . المأخوذ لغه من فعيل بمعنى مفعول . وقيل في ذلك وجوه أخرى .

وفي ختام الحديث عن الجهاد المسلح في الإسلام يجب التنبيه والتأكيد على أن السلم والسلام هو الأصل والأساس للإسلام . أما الحرب والقتال فعرض استثنائي تفرضه عليه ظروف شاذة تهدد السلام والأمن والتي لا يجد مناصاً ولا وسيلة لدفعها والدفاع عن السلام فيها إلا بالحرب . وهي آخر وسيلة يستعملها ضد العدوان والفساد . والدليل على هذا الواقع عشرات الآيات في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ ان الله لا يحب المعتدين ﴾ ﴿ان الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ . الخ ، ومئات الشواهد في سيرة النبي الكريم وسيرة خلفائه الراشدين عليهم السلام . الذين لم يخوضوا حرباً إلا دفاعاً ولم يرفوا يداً بالسيف إلا بعد ان مدوها مراراً بالسلام .

أما سيرة الملوك الجبارين والحكام المستبدين من الأمويين والعباسيين وغيرهم الذين حكموا باسم الإسلام وهو منهم بريء ، فلا تصلح أن تكون مقياساً لأن سيرتهم تعج بالمنكرات والشذوذ والإنحرافات عن خط الإسلام ومبادئه وأحكامه .

فالمسلم من سلم الناس من يده ولسانه إلا بالحق . . . حسب نص الحديث الشريف المتفق عليه .

وعلى ذكر الجهاد المسلح في الإسلام نشير الى ثورات الشيعة المتتالية ضد الظلم والإستبداد والعدوان عبر التاريخ الإسلامي الطويل بقيادة أئمتهم الأبرار وقادتهم الأخيار وعلماءهم الأعلام .

وهذه ظاهرة طبيعية بالنسبة الى طائفة تدين بالإسلام الذي يشكل الجهاد احد اركانه الخمسة الأساسية ، وهي : الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد . . .

ولا نتعرض في هذا الموجز لذكر ثورات الشيعة في القرون الإسلامية الأولى والقرون الوسطى ، وانما نشير فقط الى ثوراتهم في العصور المتأخرة جداً . وخلال القرن العشرين الميلادي بالتحديد .

فنقول : لقد ضرب الشيعة اروع الأمثلة في الكفاح والنضال ضد الحكام الطغاة وملوك الجور والإستبداد واعداء الإسلام من القوى الإستعمارية الكافرة والغزاة بقيادة كبار علماء الدين فهزوا بذلك كيان الأمبراطوريات العثمانية والبريطانية والروسية واقلقوا الدول الإستعمارية بصرخاتهم المدوية وانتفاضاتهم البطولية . وعلى سبيل المثال نذكر :

موقف شعب أيران المسلم بقيادة آية الله المقدس (السيد محمد حسن الشيرازي الكبير رحمه الله نزيل سامراء الذي كان المرجع الأعلى للطائفة والذي وقف في وجه اطماع الشركات الإحتكارية والإستعمارية البريطانية في ايران ففي عام ١٣٠٩ هجرية منح شاه ايران ناصر الدين شاه القاجاري امتياز حصر التبغ في ايران الى شركةٍ بريطانية فأدرك السيد الشيرازي رحمه الله ان هذه الشركة استعمارية وانها تمهد الطريق امام الإستعمار البريطاني للتغلغل في شؤون ايران واحتكار ثرواتها ونهب خيراتها فما كان من السيد رحمه الله الا ان اصدر فتواه التي حكم فيها بتحريم التدخين مطلقاً فاستجاب اهالي ايران قاطبةً لتلك الفتوى وتركوا استعمال التبغ بصورة عامة حتى الشاه نفسه طلب نارجيلةً ليدخن فقيل له ان السيد حرّمها فامتنع ، وبذلك انهارت الإتفاقية وخرجت الشركة من ايران

بخسارة كبيرة .

ونذكر أيضاً . . .

موقف الشيخ المقدس الآخوند ملا كاظم الخراساني رحمه الله الذي تزعم الحركة الإصلاحية ضد الظلم والإستبداد السائدين آنذاك في البلاد الإسلامية فتحالف حكام ايران مع الحكام الأتراك العثمانيين ضد تلك الحركة الإصلاحية وقاوموها بشتى الوسائل كما وحسب لها الروس والأنكليز الف حساب وحساب واصبحت النجف في ذلك العهد مركزاً سياسياً مهماً اتجهت اليه انظار العالم وابرق الشيخ رحمه الله الى السلطان التركي عبد الحميد برقيةً بمطاليب المسلمين والتي منها قيام حكم دستوري برلماني قائم على العدل والإنتخاب والشورى .

وفي خلال تلك الأيام زحفت الجيوش الروسية القيصرية على ايران واحتلوا المقاطعات الشرقية من ايران وضربوا قبة المرقد الرضوي المقدس بالمدافع . فاعلن الشيخ الآخوند رحمه الله الجهاد المقدس وتهيأ للخروج بنفسه لقيادة المجاهدين الى ايران لمحاربة الأحتلال الروسي وتهيأ معه للخروج أيضاً جماعة علماء الإسلام في النجف وكربلاء ، ولكن فاجئه الأجل ومات بسكتة قلبية قبيل الخروج بيوم او يومين فجر يوم الثلاثاء عام ١٣٢٩ هـ .

ومن الجدير بالذكر هنا ايضاً . .

موقف علماء النجف وكربلاء في وجه الغزو البريطاني للعراق في الحرب العالمية الأولى ، حيثِ اجتمع علماء النجف يومئذٍ وانضم اليهم علماء كربلاء واعلنوا الجهاد العام ضد الغزو الكافر البريطاني وسارت جموع المجاهدين بقيادة العلماء الأعلام الى الجبهة الجنوبية من العراق في مقاطعة البصرة وتسلموا ثغور الشعبية

والقرنة والحويزة وغيرها . وكان السيد المجاهد المقدس السيد محمد سعيد حبوبي على ثغر الشعيبة فكان ينفق على المجاهدين من ماله الخاص مع ان الدولة العثمانية قدمت له مبلغاً من المال ليستعين به على جهاد الإنكليز لكن السيد لم يقبله وقال لست بحاجة اليه فعلاً .

كما توجه الشيخ الجليل المقدس الشيخ محمد مهدي الخالصي رحمه الله والشيخ المقدس العلامة الشيخ عبد الكريم الجزائري توجها بمن معهم من المجاهدين الى جبهة الحويزة في اقصى جنوب العراق . اما الشيخ المقدس المجاهد شيخ الشريعة الأصفهاني رحمه الله فانه رابط هو وجنده من جهة القرنة ، وهكذا توزع العلماء على رأس القيادات على الثغور والجبهات ولكل منهم قدس الله نفوسهم الزكية ، مواقف مشرفة وبطولة مشهورة ومشكوره لا يسع المقام تفصيلها ، وكان النصر لهم لولا خيانة وتخاذل الجيش التركي الذي انسحب وتقهقر عن مواقفه ومراكزه الدفاعية فإنهارت مقاومة المجاهدين وقتل الآلاف منهم واصيب السيد الحبوبي رحمه الله بصدمة نفسية وتوفي على اثرها ونقل جثمانه الطاهر الى النجف عام ١٣٣٣ هـ واخيراً تقدمت الجيوش الأنكليزية واحتلوا العراق بجهد ومشقة عانوها من مقاومة الأهالي والسكان المحليين للقرى والمدن طول الطريق من البصرة الى بغداد .

ولكن شيعة العراق بقيادة علماءهم الأعلام لم يستسلموا ولم يرضخوا للأمر الواقع بل استأنفوا التجمع والتعبئة العامة واعلنوا الثورة الشاملة على الاحتلال البريطاني وحدث الانفجار العام بقيادة الشيخ الكبير المجاهد الشيخ محمد تقي الشيرازي رحمه الله نزيل كربلاء . فانقض الأهالي على الحكام الأنكليز العسكريين في مدن

الجنوب والفرات الأوسط . فقتلوا منهم جماعةً وطردوا الآخرين فحشد الأنكليز جيوشهم ثانيةً وطوقوا المدن وحاصروا النجف الأشرف فقاومهم الأهلون باسحلتهم البدائية وقتلوا من لأنكليز آلافاً وأسروا الآلاف واغرقوا سفنهم الحربية وغنموا اسلحة كثيرة واشتبكوا معهم في معارك ضارية مشهورة مثل معركة الرسّميّة ومعركة الرارنجية ومعركة الرميثة . وقطعوا سكة الحديد وهجموا على القطارات التي حمل الجنود والعتاد ، ودامت الثورة محتدمة حوالي الستة أشهر الى ان وافق الأنكليز على المفاوضة مع علماء الشيعة وزعماءهم وعلى الشروط التي وضعها المجاهدون وفي مقدمتها انهاء الإحتلال البريطاني واقامة حكومة وطنية مستقلة وقبل انجاز تلك الشروط توفي القائد الكبير الشيخ محمد تقي الشيرازي رحمه الله فقام خليفته الشيخ الشريعة الأصفهاني قدس سره قام بمتابعة شروط الصلح حتى نفذت وانسحب الأنكليز وحصل العراق على الاستقلال بقيام حكومة وطنية ملكية برئاسة الملك الهاشمي فيصل الأول ابن الشريف حسين ، ولما ظهر بعض الانحرافات في سياسة الحكومة الداخلية تحرك علماء الشيعة وفي مقدمتهم حجة الإسلام الميرزا حسين النائيني والسيد الحجة ابو الحسن الموسوي الأصفهاني والشيخ المجاهد محمد مهدي الخالصي رحمهم الله جميعاً قاموا يطالبون الحكومة بالعدل والمساواة وتصحيح الأنحرافات ، ولكن عملاء الأنكليز المنتشرين آنذاك في داخل الحكومة وخارجها عملوا بكل القوى والامكانيات على اجهاض تلك الحركة وافشالها الأمر الذي ادى الى القاء القبض على قادة الحركة وهم العلماء الثلاثة المذكورون آنفاً وابعدوهم من العراق الى ايران كما ابعدوا بعض زعماء الشيعة الى اقطار اخرى . . .

والخلاصة : هي ان هذه بعض الشواهد القريبة الدالة على ان

الشيعة دائماً وابداً بأئمتهم وعلماءهم وقادتهم قدوة العالم في النضال ضد الباطل والتضحية في سبيل الحق وهم رواد الحرية ومعلموا العالم دروس الأباء والعزة والكرامة

ونختم هذا الفصل بذكر فقرة من مذكرات الجاسوسة البريطانية في العراق قبل واثناء الحرب العالمية الأولى . (مسبل) .

تقول (مسبل) في مذكراتها ان رجال الدين كانوا من اكبر دعاة الثورة في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها وهذا مما دعا رجال الحكم الى انشاء المدارس الحديثة لكي يضعفوا بها عقيدة الدين في نفوس الجيل الجديد ويجتثوا جذور الثورة من أساسها . . » .

وكلمة رئيسي وزراء بريطانية في مجلس العموم آنذاك معروفة حيث قال : « ما دام القرآن بأيدي المسلمين فليس لنا في بلادهم محط قدم » ، وها نحن هذه الأيام وهي الثلث الأول من عام ١٣٩٩ هـ الموافق لعام ١٩٧٩ م نعيش بشائر افراح الثورة الإسلامية الكبرى في ايران بقيادة آية الله الحجة المجاهد السيد روح الله الموسوي الخميني اطال الله بقاه وأتم له النصر والنجاح . هذه الثورة التي اطاحت باكبر امبراطورية في الشرق واذهلت العالم كله بسرعتها الخاطفة ونجاحها الباهر ، والتي زلزلت كيان اسرائيل واقلقت القوى العظمى في الدنيا كلها اللهم اعزه واعزز به وانصره وانتصر . وانصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً يسيراً . . . بمحمد وآله صلواتك عليهم اجمعين . . .

وما النصر الا من عند الله .

وإلى هنا نختتم البحث حول العبادات الخمسة في الإسلام والتي يعبر عنها بأركان الإسلام وقد يقال لها أيضاً (فروع الدين)

في مقابل (أصول الدين وهي العقائد الخمسة التي سبق الكلام عنها مفصلاً . وهناك تفصيلات أخرى لهذه الأصول والفروع لا يسعها هذا الكتاب ولننتقل الآن الى الكلام حول موضوع آخر في الفصل الآتي . . .

الفصل الرابع

نظام الأسرة في الإسلام

الأسرة أو العائلة معناهما واحد وهي عبارة عن أشخاص يعيشون في بيت واحد ويرتبطون فيما بينهم بروابط السبب والنسب أي برابطة الزوجية والولادة ويجري بينهم اتصال عاطفي فيتفاعلون فيما بينهم على شكل ادوار . كالزوج والزوجة والأبن والبنت وهكذا . . . وبما أن كل انسان يتأثر منذ الولادة بل وقبلها أيضاً بمحيط العائلة وتتكون معظم شخصيته في اطارها بحيث يؤكد العلماء على أن الفضائل والرذائل والعواطف كالحب والبغض واللؤم والحقد والكرم والبخل والسماحة والإجرام وما شاكلها من الخصائص الشخصية كلها نتيجة نشئتنا الخاصة العائلية حيث تغلغلت في نفوسنا تلك الظواهر والعادات منذ نعومة الأظفار لذا فإن للعائلة اكبر التأثير في المجتمع الإنساني أن خيراً فخير وان شراً فشر .

ومن هنا وجه الشارع الإسلامي عناية كبرى نحو الأسرة والعائلة لتنظيمها على أسس صالحة واقامتها على دعائم ثابتة ومعتدلة لتكون العائلة نواة طيبة وتربة خصبة لأنطلاق المجتمع السعيد منها بإذن الله تعالى .

العائلة الإسلامية :

يقول الأستاذ محمد أبو رهر في كتابه (المجتمع في ظل الإسلام) .

أن البيت أو الأسرة الإسلامية تقوم على أسس ثلاثة :

أولاً : المودة والرحمة والحب المتبادل بين كافة أفرادها .

ثانياً : العدالة وهي عبارة عن رعاية كل فرد لحقوق الآخرين .

ثالثاً : التكافل الإقتصادي داخل نطاق الأسرة . فالقادر يكفل القاصر والعاجز . .

أجل أن البيت مجتمع صغير يحتاج إلى نظام ومسؤول ، فنظامه يقوم على الأسس الثلاثة المذكورة وأما المسؤولية فيه فمشتركة بين الأفراد كل في حدود عنوانه ومكانته فيه غير أن المسؤول الأول فيه هو الأب الزوج المعبر عنه برب العائلة فعليه واجب الانفاق والتربية والتعليم وعلى الافراد واجب السمع له والطاعة في حدود ما أنزل الله . وبعد الأب في عظم المسؤولية عن الأسرة ونظامها هي الأم المعبَّر عنها بـ (ربة البيت) فعليها الحضانة والرعاية والتلقين الصحيح لأولادها داخل المنزل وفي دور الطفولة كما ولها عليهم واجب الاحترام والطاعة والإحسان .

فالأب والأم هما المسؤولان بالاشتراك والتعاون عن تنظيم العائلة وتربية أفرادها تربية صالحة وهما مسؤولان عن إيجاد جوٍّ في البيت يساعد على النشئة الصالحة والنمو المهذب في الأولاد وايجاد هكذا جو عائلي يستلزم ثلاثة عناصر . الأول : القدوة الصالحة . الثاني : البيان والتوجيه اللفظي . الثالث : العقاب أو التهديد به .

فعلى الأبوين الذين يريدان القيام بمسؤوليتهما التربوية في داخل نطاق الأسرة ان يوفرا هذه العناصر الثلاثة ويستعينا بها على واجبهما . فاولاً وقبل كل شيء .

القدوة الصالحه : وهو يعني أن يجعلا من نفسيهما مثلاً عملياً وتجسيداً خارجياً للصلاح والآداب والأخلاق الفاضلة التي يريدانها لأولادهما . سواء في العلاقة الزوجية بينهما أو في سائر أنواع ومظاهر السلوك الأخرى لأن ظواهر الحياة البيتية واشكال السلوك في

علاقات الأبوين وتصرفاتهما تنتقش في نفس الطفل وتنطبع في مخيلته وتؤثر أثراً بليغاً في صياغة أحاسيسه وأفكاره وبالتالي تنعكس على شاشة حياته كلها ويكون من الصعب محوها أو التخفيف منها وهذه حقيقة وجدانية يحسها ويشعر بها كل فرد منا في نفسه وأخلاقه . ومن ثمة جاء في الحديث المعروف عنه (ص) : « ربو أولادكم صغاراً لتنتفعوا بهم كباراً » وقال بعض الشعراء في مدح عدي بن حاتم الطائي مشيراً إلى هذه الحقيقة .

بابه اقتدى عدى في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

وبالنسبة إلى الأم وتأثيرها في الولد من حيث السلوك والأخلاق قال شاعر حكيم :

الأم مدرسة إذا هذبتها أوجدت جيلاً طيب الأخلاق

وقال الأديب الآخر :

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً فشيمة أهل البيت كلهم رقص

والخلاصة هي : ان الشرط الأول والأهم في القيام بواجب تنظيم الأسرة وتربية العائلة هي القدوة الصالحة والمثالية السليمة التي يجب أن تتجسد في رب العائلة وربة البيت اعني الأب والأم . . . أما الشرط الثاني والعنصر التربوي الآخر بعده فهو التوجيه والبيان .

أي التعليم اللفظي بالشرح والتلقين ليكون مكملاً للتوجيه العملي السابق في القدوة الصالحة ، فتلك تربية عملية وهذه تربية لفظية .

فلا يكفي أن يكون الأب مثلاً صادقاً أو أميناً وعفيفاً وحليماً وغير ذلك من الصفات الحسنة بل يجب أيضاً أن يدعو الأولاد إلى

الاتصاف بها مع بيان ثمراتها ومساويء اضدادها فيكون الولد على بصيرةٍ من الأمر ومعرفة بالسبب في فعل هذا وترك ذاك لأن الإنسان بطبعه عدو لما جهل على حد قول الإمام علي (ع) ، فإذا لم يعرف ثمرةً وفائدةً تعود عليه من فعلٍ ما فلا يندفع للعمل به وإذا لم يتصور ضرراً يصيبه من فعلٍ ما فلا يبتعد عن اتيانه . وهذه السنة الطبيعية في الإنسان لاحظها القرآن فذكر الفوائد الفورية المترتبة على العبادات تشويقاً للإنسان في ادائها فقال عن الصلاة أنها ﴿**تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾وقال عن الصوم انه يورث القوة في الارادة والقدرة على امتلاك زمام الشهوات بقوله تعالى : ﴿**وان تصوموا خير لكم**﴾ وقال تعالى عن الحج : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ وقال عن الزكاة انها تطهر الإنسان من رذيلة البخل وتزكيه أي تورثه النمو والزيادة في عمره وماله وذلك في قوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ . وإلى غير ذلك من أمثالها وكذلك من جانب المحرمات حيث ذكر سبحانه وتعالى بعض الأضرار والمساويء الناتجة عنها فقال عن الخمر والميسر : ﴿ **رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر** ﴾ **الخ ، وقال عن الزنا** : ﴿ **انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا**﴾وإلى ما شاكل والغرض : هو أن عنصر البيان والتوجيه اللفظي ضروري بعد عنصر القدوة الصالحة في القيام بواجب تربية العائلة وتنظيم الأسرة الإسلامية . وبعد هذين العنصرين يأتي دور العنصر الثالث ، وهو العقاب ، تهديداً أو تنفيذاً .

وقد لا يكون هذا العنصر لازماً في الأعم الأغلب إذا توفر للمربي العنصران السابقان الأول والثاني على التمام والكمال وبشكل دائم .

غير أن بعض النفوس قد لا تتأثر بالقدوة الصالحة ولا بالوعظ

والارشاد لما فيها من غلظة وجمود ، أو بلادة وبلاهة فلا بد لها من الشعور بالخوف من العقوبة ليكون هذا الشعور دافعاً نحو الصلاح والاستقامة كما قرر ذلك حديثاً علماء التربية وعلم النفس . وكما جاء أيضاً في الامثال القديمة وكلمات الحكماء بما حاصله « علق سوطك بحيث يراه أهلك وان لم تضربهم به » .

والخلاصة هي : ان عنصر العقوبة هذا يأتي دوره كعلاج آخير وبعد فشل الوسائل السابقة وغيرها من قبيل (آخر العلاج الكي) ويجب استعماله بحكمة وحدود من غير عنف شديد وفي الحالات الشاذة الضرورية .

ويقرر بعض الخبراء أن هناك عنصراً رابعاً وضرورياً أيضاً للتربية ويأتي دوره قبل عنصر العقاب والتخويف الا وهو .

عنصر التشويق والترغيب : بالمكافئات المالية أو غيرها ، فالخوف والرجا عنصران ضروريان يكمل بعضهما بعضاً .

وكشاهد على ذلك نذكر ما روى عن النبي (ص) أنه رأى شاباً يصلي في المسجد فأصغى الرسول إلى صلاته فوجدها متقنة وصحيحة وهو مقبل عليها بخضوع وخشوع ، فلما فرغ منها دعاه الرسول (ص) اليه وأعطاه ديناراً أو قطعة ذهبية ثم قال له أتعرف لماذا أعطيتك هذا المال فقال الشاب نعم لقرابتي منك من جانب الأمهات ، فقال النبي (ص) : لا . ولكن لحسن صلاتك وصحة قرائتك .

فعنصر الرجاء دوره قبل عنصر الخوف ولا يصح اهماله من قبل الذين تقع عليهم مسؤولية التربية العائلية وتنظيم الأسرة والله الموفق والمستعان . .

وجدير بنا الآن أن نبحث عن العوامل الرئيسية التي تعكر صفو البيت وربما تقوض أركان الحياة العائلية وتحطم مستقبل أفراد الأسرة . نبحث عن العوامل والحلول تحت عنوان :

مشاكل البيت وأسبابها :

ان سعادة الإنسان في بيته تنعكس على كافة مرافق حياته العامة ، فسعادة البيت منطلق سعادة الحياة كلها والعكس بالعكس فشقاء الانساء في بيته يتسرب إلى حياته خارج البيت فيعمها جميعاً بالشقاء والبئس والفشل ، وثابت بالتجربة والوجدان . . . ان من كان سعيداً في بيته عاش مع الناس سعيداً منبسطاً حسن الخلق واسع الصدر ، ومن كان معذباً في البيت عاش مع الناس ضيق الصدر سيء الخلق .

ومن ثم جاء في الأمثال الغربية قولهم عند حدوث مشكلة أو جريمة « فتش عن المرأة » وكان الأجدر أن يقال « فتش عن البيت » لأنه مصدر الهدوء النفسي أو التوتر العصبي ومشاكل البيت كثيرة ومتنوعة وليست مقصورة على بيئة معينة ومجتمع خاص شرقية أو غربية غنية أو فقيرة متمدنة أو بدائية . بل انها مشاكل البيت في مختلف المجتمعات ، نعم . . قد تختلف المشاكل شدة وضعفاً قلة وكثرة بإختلاف العوامل والأحوال ولكن مما لا شك فيه أن التدين الصحيح يخفف من تلك المشاكل ويقلل من حدوثها كما هو واضح في الأسر المتديِّنة والبيوت المحافظة . ويبدو بالعكس في الأسر المتحللة من العقيدة والدين . ولقد سجلت المحاكم في البلاد الغربية أرقاماً عالية في نسب الطلاق ، عدا ارتفاع نسبة الخيانة والقتل وغيرها .

أما أسباب المشاكل العائلية واضطراب الحياة الزوجية ، فكثيرة

ومتنوعة ، نذكر منها الأهم الأظهر .

اولاً : تحكيم الهوى والعاطفة الجنسية في اختيار الزوج أو الزوجة ، فإذا خمدت هذه الغريزة واشبعت تلك العاطفة لم يبق رباط للحياة الزوجية فتبدأ المشاكل بالظهور .

ثانياً : تحكيم الطمع والكسب المادي في الزواج دون مراعاة للجوانب الإنسانية والأخلاقية وقد جاء في الحديث الشريف : « من تزوج امرأة لمالها أو جمالها حرمة الله منهما » أي لمحض المال والجمال بدون ملاحظة للإعتبارات الأخرى من عقل او اخلاق أو دين وبديهي أن هكذا زواج ليس له قوام روحي ولا رباط انساني فهو قصير البقاء .

ثالثاً : سوء فهم كل من الزوجين لطباع الآخر فلا يتجنب قدر الإمكان ما يثير غضبه أو يخدش عواطفه أما بالنسبة للمرأة فنظراً إلى أنها قوية العاطفة ضعيفة العقل والارادة فقد أوصى بها نبي الإسلام محمد (ص) بقوله « رفقاً بالقواير » كناية عن أن المرأة سريعة التأثر حساسة العواطف . بينما هي تبكي وإذا بها تضحك وبينما هي تحب وإذا بها تكره . . وهكذا . . الخ .

وأوصى بها ايضاً الإمام علي (ع) بقوله (ان المرأة ريحانة) كناية عن انها سريعة الذبول جسدياً يسرع اليها الهرم والشيخوخة في سن مبكرة قبل الرجل فالاحتفاظ بجمالها ونضارتها لمدة أطول يتوقف على مداراتها نفسياً واراحتها جسدياً قدر المستاع قال عنها ايضاً (ع) مثل المرأة كالضلع المعوج ان داريته استمتعت به وان حاولت اقامته انكسر .

وهذا لا يعني أنها تترك وشأنها تعمل ما تشاء وتفعل ما تريد حرة مطلقة حتى خارج حدود القانون والأخلاق . . كلا ، وانما يعني

التوسط والاعتدال مع المرأة والمعاشرة معها كإنسانة وشريكة في الحياة فلا قسوة ولا اهمال مع الانتباه دائماً الى ان وقاية الزوجة من عقاب الله وعذابه في الآخرة. هي من أهم حقوق الزوجة في ذمة الزوج يجب عليه القيام به قدر طاقته. قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ، وكلمة (أهليكم) تشمل مطلق أفراد العائلة وفي مقدمتهم الزوجة . فهي أمانة في عنق الزوج يلزمه المحافظة عليها من كل شر قدر الإمكان هذا بالنسبة الى المرأة .

وأما بالنسبة للرجل فنظراً إلى كونه رب العائلة والمسؤول الأول عن الأسرة الذي يكد ويجد ويتعب فكرياً وجسدياً خارج البيت لضمان نفقة العائلة ومستلزمات الحياة الأخرى فهو في أمس الحاجة إلى بيت منظم هادىء ليستريح فيه من عناء الكسب ومشقة العمل وتعب السعي اليومي ولا يمكن أن يحصل على مثل هذا البيت إلا إذا كانت الزوجة ربة بيت بالمعنى الصحيح تشعر بمسؤولياتها وتقوم باداتها على أحسن الوجوه . . ولقد قال الرسول الأكرم (ص) : « من سعادة الرجل زوجة صالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله » . ولما فرض الجهاد على المسلمين خاصة دون المسلمات أرسلن نساء المدينة إلى رسول الله (ص) يقلن له هذا الجهاد وقد كتبه الله على الرجال فإن أصابوا اثيبوا وان أصيبوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معاشر النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك الأجر . فقال النبي (ص) : « إن طاعة المرأة للزوج واعترافها بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من تفعله . . وعنه عليه وآله الصلاة والسلام انه قال جهاد المرأة حسن التبّعل » أي حسن المعاشرة الزوجية والصبر مع الزوج في البأساء والضراء . . وحدد النبي (ص) في حديث آخر مسؤوليات المرأة

بقوله : « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت » .

ولا ننسى ان الطاعة المطلوبة من الزوجة لزوجها إنما هي في حدود الشرع المقدس وكذلك كل اطاعة تفرض على شخص لشخص آخر كطاعة الولد للوالدين وغيرها . « لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » على حد ما جاء في الحديث النبوي الشريف . وعليه فالرجل الذي يأمر زوجته بترك واجب كالصلاة والصيام والحج مثلاً . . أو يأمرها بارتكاب ما حرمه الله مثل نبذ الحجاب والاختلاط مع الرجال والذهاب إلى السهرات المختلطة أو السينما أو الملاهي وغيرها . . هكذا رجل لا حرمة له ولا طاعة على الزوجة لأوامره تلك . . .

والخلاصة : يجب على الزوجة أن تجعل بيت الزوجية دار القرار والاستراحة وعلاقتها الزوجية سكناً وأنيساً للزوج ، وأحسن كلمة جمعت تفاصيل واجبات الزوجة في بيتها ومع زوجها هي وصية تلك المرأة الحكيمة لأبنتها لما تزوجت وانتقلت إلى بيت الزوج فقالت لها يا بنيّة : (اعلمي انك خرجت من العش الذي فيه درجت وصرت إلى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكوني له أرضاً يكن لك سماء وكوني له مهاداً يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً) . يا بنيّة : (لا تلحفي به فيقلاك ولا تباعدي عنه فينساك ان دنى منك فاقربي منه وان نيء عنك فابعدي عنه واحفظي أنفه وعينه وسمعه ، فلا يشمَّن منك الا طيباً ولا يسمع الا حسناً ولا ينظر إلا جميلا واعلمي ان الكحل احسن الحسن المفقود وان الماء اطيب الطيب الموجود واوصيك بالتعهد لوقت طعامه وبالهدوء والسكون عند منامه فحرارة الجوع ملتهبة وتنغيص النوم مغضبه . لا تفشين له سراً ولا تعصين له امراً واياك والأكتئآب اذا كان فرحاً والفرح إذا كان كئيباً

وإياك والغيرة فانها مفتاح الطلاق . . . الخ) .

وهكذا تنجح المرأة في امتلاك قلب زوجها وتجعل له البيت مصدر نشاطه وسعادته وبالتالي مصدر سعادة أفراد البيت جميعاً . .

والحقيقة الأساسية التي يجب أن نتذكرها دائماً كأزواج وزوجات هي :

ان الحياة والصحة والهدوء النفسي أثمن وأجل من أن نضيعها بالخصومات والنزاعات والقلاقل البيتية وان ما ينفقه أحدنا من صحته وسعادته حين يغضب ويثور لهو أغلى بكثير من ذلك الشيء الذي نغضب له ونثور لأجله وان ما نفسده بالغضب والنزاع لا يقابله أي اصلاح أو فائدة ترجى بالغضب والخصومة . وخاصة إذا كان في البيت صغار من بنات وبنين فإنهم يتأثرون بخصومة الكبار ومنازعاتهم أسوأ الأثر في الحال والمستقبل .

هذه العوامل الثلاثة هي العوامل الرئيسية التقليدية في حدوث المشاكل العائلية واضطراب الحياة الزوجية .

وقد اضافت المدنية الحديثة والتقاليد الغربية عوامل أخرى تسبب خراب البيوت وهدم الأسرة وتعكر صفو المودة والاستقرار بين الزوجين . وها نحن نذكر الأهم منها ، فمثلاً . . .

حرية المرأة . . .

في التبرج والخلاعة والاختلاط مع الرجال بدون قيد أو شرط . . هذه الحرية أصبحت أعظم معول هدام لكيان الحياة الزوجية ، حيث نشرت الخيانة بين الأزواج لزوجاتهم وبالعكس فنادراً ما تجد زوجاً لا يخون زوجته بالاتصال الغير شرعي مع غيرها من النساء ، وزوجة تفي لزوجها فلا تقيم علاقات غرامية أو جنسية

مع رجال آخرين .

نعم أصبح العفاف نادراً جداً في عصرنا هذا وأهم أسبابه هذه الحرية المطلقة التي نكبت به المرأة في القرن العشرين ، وهذه حقيقة لا تحتمل الجدل والنقاش ولا ينكرها إلا غبي أو مغالط وصار الغربيون أنفسهم يشعرون بالقلق والخطر الأعظم من عواقب حرية المرأة ، وقد قرأت لبعض علماءهم تصريحاً يقول فيه :

إن المرأة الغربية آخذة بالعودة والرجوع إلى العصر الحجري وعهد الغاب لأنها أطلقت العنان لشهواتها حتى أصبحت لا ترغب في الحياة الزوجية ، وحتى إذا رغبت في الزواج فلا تبقى مع الزوج إلا قليلاً حتى تفارقه إلى زوج آخر أو صديق بالطلاق أو الخيانة . .

وذكر المودودي في كتابه (الحجاب) عن بعض البلاد الأوروبية الكبرى إن نسبة الزواج فيها بين مجموع العلاقات الجنسية انخفضت إلى سبعة بالألف يعني أن كل ألف علاقة واتصال بين رجل وامرأة سبعة منها بالزواج الشرعي القانوني وتسعمائة وثلاثة وتسعين منها علاقات صداقة وغرام جنسي محض . .

وذكر الأستاذ الحوماني رحمه الله الذي عاش سنوات طوال في البلاد الغربية يتنقل فيها بين أوروبا وأمريكا ، يقول في الجزء الثالث من كتابه القيم : (دين وتمدين) إن كثيراً من أبناء أمريكا مجهولو الآباء والأمهات . أي أنهم لقطاء . ويقول أيضاً رحمه الله :

وفي عاصمة فرنسا أثبتت الإحصائات بعد الحرب العالمية الأولى أن أربعين في المائة من أبناءها مجهولوا الآباء والأمهات أيضاً وقد فقدت الحصانة الزوجية في فرنسا وأمريكا وغيرهما فنادراً تجد زوجة ترعى حرمة زوجها أو زوجاً ليس له خليلة أو خليلات يقضي معهن معظم سهراته وأوقات فراغه . . . هذه إحدى العوامل الهدامة

للأسرة التي أوجدتها المدنية الحديثة .

ومنها أيضاً كمثال آخر : الصور الجنسية الحية والمظاهر المثيرة ومشاهد الجمال الصناعي والطبيعي المنتشرة في كل مكان والتي يعايشها الرجل ليل نهار في الشارع وفي الدائرة والسوق والمعمل والمدرسة وعلى شاشة التلفزيون وصفحات المجلات وأفلام السينما وغيرها . الأمر الذي يُزهد الأزواج في زوجاتهم ويحقرّهن في أنظارهم أمام ما يشاهدون من الأجسام العارية وشبه العارية والإثارة والاغراء ويؤدي بالتالي وبشكل تدريجي إلى اعراض الرجل عن زوجته وعدم قيامه بالواجبات الزوجية ثم تبدأ المشاجرة والمنازعات ويتحول البيت الى بؤرة خصام وعراك وتوتر وجحيم لا يطاق وكثيراً ما ينتهي الأمر الى الفراق والطلاق وتشريد الأولاد وخراب البيت . وهذه الصحف تطالعنا في كل يوم ببعض الكوارث والويلات التي تحدث يومياً بسبب هذا الانفلات . واما نسبة الطلاق التي ترتفع يومياً فيوم بسرعة هائلة فهو أمر لا يحتاج إلى دليل أو برهان سوى الاطلاع على سجلات المحاكم الشرعية والمؤسسات المختصة الأخرى . . .

وفي الختام أقول : هذه معظم أسباب المشاكل البيتية ومكدرات صفو الحياة الزوجية : وعلاجها الوحيد هو في رفع تلك الأسباب والقضاء على تلك العوامل وبرفعها والقضاء عليها تنتهي آثارها حتماً وتعود الحياة الزوجية كما وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . . .** ﴾ .

الفصل الخامس

بين الفرد والمجتمع

مما لا شك فيه أن الإنسان اجتماعي بطبعه وبمقتضى مصلحته فهو لذلك مدين بالفضل لمجتمعه سواء شعر بهذا الفضل أو لم يشعر اعترف به أو لم يعترف اذ لولا رعاية الأبوين وعناية الأساتذة والمعلمين وجهود العمال والفلاحين وعمل التجار والمحترفين وسهر الحكام والمسؤولين . . . وغيرهم من طبقات المجتمع وفئاته لما استطاع الفرد أن يعيش في الحياة كإنسان بل ان الفرد الإنساني مدين لا لمجتمعه فحسب بل للمجتمع العالمي بأسره في شرق الأرض وغربها للجيل الحاضر والأجيال الماضية . فلو فكر الإنسان فيما يأكل ويلبس ويسكن ويستخدم من الآت ووسائل من أين جاءت وكيف حصلت وما هي أسباب حصولها . . . لعرف صدق ذلك ولصدّق الشاعر القديم حيث قال :

الناس للناس من بدوٍ ومن حضرٍ بعضٌ لبعض وان لم يشعروا خدم

فالإعتراف بهذا الفضل ثم القيام بشكره لهم ، هو أظهر علامات العقل والحكمة وأبرز مظاهر الوعي والإنسانية . وشكر هذا الفضل انما يكون بالتعاون مع الناس على البر والتقوى والقيام بالعمل الصالح المثمر وان لا يلقي كله عليهم ولا يعيش بينهم كعضوٍ مشلول يأخذ ولا يعطي . ولذا قال النبي (ص) : « ملعون من ألقى كله على الناس » وقال أيضاً (ص) : « ان الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطّال » ونظر ذات يوم إلى عامل قد مجلت يداه من العمل . فقال (ص) : « انها كف يحبها الله ورسوله » . وقال في الحديث المشهور : « خير الناس من نفع الناس » .

ويعتبر هذا الشعور بالحب للناس والإعتراف بالفضل والجميل للمجتمع العالمي . يعتبره العلماء أدق مقياس لعظمة الشعوب والأفراد ، وبه يعرف أيضاً مدى عظمة المبادىء والأديان وعليه يعتمد كل الأحرار والمنصفون في اعترافهم للشريعة الإسلامية بالأفضلية والتفوق على كل الأديان والمبادىء والنظم في العالم ، لأن الإسلام كما هو صريح نصوص الكتاب والسنة أشدها تأكيداً على تقديس المصلحة العامة والمحافظة على الروابط الإجتماعية والدعوة إلى الأخوة الإنسانية والوحدة العالمية في اطار التعاون والاحترام المتبادل والمساواة . ففي القرآن قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ .

وفي السنة الكريمة قول الرسول (ص) : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه إلا بالحق . . المؤمن من أئتمنه الناس على دماءهم وأموالهم وأعراضهم . . . الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » .

وقال ربيبه وتلميذه ووصيه الإمام علي بن أبي طالب (ع) في عهده المعروف : « اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك فحب لغيرك ما تحبه لنفسك واكره له ما تكره لها . . الخ » .

حقاً أن انبثاق الإسلام عن ارقى المبادىء الإنسانية وقوانين العدالة الإجتماعية والأخوة العالمية في احلك فترة من فترات التاريخ . لهو بحد ذاته من أكبر معاجزه وأوضح الدلائل على فضله وتفوقه . . . أجل . لقد انبثق الإسلام عن ارقا المثل الإنسانية في

عصر كان فيه الإنسان يأكل أخاه الإنسان والوالد يقتل أولاده ويدفن بناته وهن أحياء في وقت تستعر فيه نيران الحروب الطاحنة عشرات السنين وتلتهم الآلاف من البشر بسبب ناقة أو عقال ناقة . في عصر الإستعباد والإستغلال والتمييز العنصرى والتعصب العرقي والقبلي . . الخ .

في هكذا فترة يظهر الإسلام فيعلن مبادىء العدل العام والمساواة البشرية والأخوة الإنسانية بأرفع ما يمكن أن تصل اليه هذه المبادىء . ويطبقها بالفعل وبصورة عملية دقيقة وشاملة وظل يطبقها في كل مكان من الأرض وصل إليه سلطانه ولفترة طويلة من الزمن ، تحت شعار الحديث الشريف : « الناس كلهم من آدم وآدم من التراب لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام قد احاط هذه الأخوة الإنسانية والحب المتبادل بسياج حصين من التشريع والتوجيه من شأنه أن يزيدها قوة ومتانة ويحافظ عليها من الضعف أو الإنهيار

فمن تشريعاته لهذه الغاية فرضه المؤكد لبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن المجاورة والصدق في القول والوفاء بالوعد والأمانة في رعاية الحقوق، وقضاء الحوائج قدر المستطاع . . الخ . وتحريمه الشديد للغيبة والنميمة والتجسس والسب والسخرية و . . .. والربا والسرقة وابتزاز أموال الناس بالقمار والإحتكار والغش وغيرها وكتحريمه لشرب الخمر لأن من بعض أضراره أنه يلقي العداوة والبغضاء الخ . . .

وأما توجيهاته في هذا الشأن فحثه على عيادة المرضى وتشيع الجنائز وتبادل الزيارات واجابة الدعوات واطعام الطعام وافشاء

السلام ، وغيرها من المستحبات الإجتماعية التي لو راعيناها وطبقناها لكان مجتمعنا اليوم أشد تماسكاً وأكثر تقارباً ومودة مما هو عليه .

ان شعور الفرد المسلم يفضل المجتمع عليه نابع من صميم ايمانه بالله وبرسالة محمد (ص) . فالله تعالى رب العالمين ويحب عباده الصالحين فكيف لا يحبهم المؤمن لحب الله . والله يأمر بشكر الإنسان المحسن ويقول هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » فكيف لا يشكر المؤمن المجتمع المتفضل عليه بالأمن والراحة وتهيئة وسائل العيش . وأما محمد (ص) يقول من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق . ويقول في بعض وصاياه . اذكر اثنين وأنسى أثنين فأما الذانِ تذكرهما فالله والموت وأما الذان تنساهما فإحسانك في حق الغير واساءة الغير في حقك . وقالَ (ص) للذي سأله على ماذا أبايعك يا محمد إذا دخلت في الإسلام . فقال : على شهادة ان لا إله إلا الله واني رسول الله وعلى النصيحة للناس . وقال أيضاً للذي سأله : يا رسول الله انا لا أصلي سوى الفرائض الخمس ولا أصوم سوى شهر رمضان وليس عندي مال يوجب على الزكاة . فاين مكاني بعد الموت . فقال له أنت معي في الفردوس الأعلىٰ ان سلم الناس من يدك ولسانك .

والخلاصة هي : ان العلاقة بين الفرد والجماعة من وجهة نظر الإسلام هي علاقة العضو مع الجسد لا يستغني أحدهما عن الآخر ولا يصلح أحدهما بدون صلاح الآخر وكل منهما مدين بالفضل للآخر ولكل منهما حقوق على الآخر كما وان على كل منهما واجبات للآخر . فحق الفرد على الجماعة أن تصون الجماعة كرامته وتوفر له أمنه وصحته وتعطيه ما يستحقه من حريته في الكسب والتعليم والرأي .

وحق الجماعة على الفرد أن يكون عضواً نافعاً لها ومفيداً فيها بعلمه وعمله وتقيده بالنظام والعرف العام ومراقبته للآخرين أن لا يخرجوا عن الحدود المقررة ولا يضروا بالمصلحة العامة . (كلكم راعي وكلكم مسؤول عن رعيته) .

والقاعدة الثابتة الأساسية التي يجب أن يتمسك بها الفرد دائماً وأبداً أن كل عمل من فعل أو ترك يضر بالمصلحة الجماعية يجب أن يلغيه ولا يقوم به وان كان له . أي للفرد فيه نفع كثير ، لأن ذلك النفع الفردي شر وضرر في الحقيقة إذا كان على حساب الآخرين والمصلحة العامة . كما صور لنا رسول الله (ص) ذلك في الحديث الشريف الذي مثل فيه المجتمع كقوم ركبوا في سفينة وأخذوا أماكنهم فيها وأراد أحدهم أن يثقب بمكانه من السفينة ثقباً يتناول منه الماء متى شاء محتجاً بأنه يتصرف بمكانه ولم يزاحم أحداً ، فإن تركوه يثقب الثقب فقد هلك وهلكوا معه وان أخذوا على يده ومنعوه فقد نجا ونجوا معه . .

وأحسن مثال لهذا التصوير في عصرنا الحاضر هي المرأة المتبرجة حيث احتجت بأنها حرة وانها بعملها هذا لم تعتدي ولم تضر بأحد فخرجت عارية أو شبه عارية فكان عملها هذا كأكبر ثقب أحدثته في سفينة المجتمع فتدفقت أمواج الفساد إلى سفينة مجتمعنا فهلكت المرأة نفسها وأهلكت المجتمع كله فلو كنا قد منعناها من البداية لسلمت وسلمنا ولكن فات الأوان . ولعذاب الآخرة الذي ينتظر هذا المجتمع أشد وأخزى وما ربك بظلام للعبيد . . .

وإليك الآن عرضاً سريعاً عن وجهة نظر الإسلام بالنسبة إلى المرأة ومكانها في الحياة والمجتمع لأنها كما نعلم تشكل نصف المجتمع على الأقل .

المرأة في المجتمع الإسلامي :

ان المتتبع للمصادر الإسلامية من كتاب وسنة وسيرة السلف الصالح يتأكد من أن الإسلام رغم احترامه للمرأة ورعايته لها واعتبارها كإنسان لها حقوقها الإنسانية في الحياة إلا انه في نفس الوقت ينظر اليها من حيث العموم نظرته إلى الضعيف في جسده وارادته وتفكيره سيتوجب العطف والرعاية ومن ثم شبهها بالقارورة أي الزجاجة فقال النبي (ص) : « رفقاً بالقواير » .. وقال الإمام (ع) : « المرأة ريحانة » هذا بعد أن حررها مما كانت فيه قبل الإسلام عند جميع ملل العالم من قيود الظلم والتعسف . أعطاها حريتها وحقوقها الإنسانية كاملة في اطار مصلحتها والمصلحة العامة . وما فرق بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات الا حيثما فرقت الطبيعة بينهما وحيثما تفرضه مصلحة كل منهما من تلك التفرقة . ففرض الحجاب عليها دون الرجل وجعل أمر الطلاق بيد الرجل وجعل شهادتها أمام القضاء نصف شهادة الرجل واعطاها في الميراث نصف حصة الرجل ومنعها من تولي الحكم والقضاء والإدارة العامة وهذه وغيرها ، إنما هي لأسباب تكمن في طبيعة كل من الرجل والمرأة تستوجب ذلك التفريق . فقد قال العالم الغربي (دوفارين) في كتابه دائرة المعارف الكبرى حسب ما نقله عنه صدر الدين الشهرستاني في كتابه المسمى بـ (التبرج) قال ما نصه :

ان الرجل أكثر ذكاءاً وادراكاً واما المرأة فأكثر انفعالاً وتهيجاً .. إلى أن يقول : أما القلب فهو مركز القوة الحيوية وهو عند المرأة أصغر وأخف بمعدل ٦٠ غراماً منه عند الرجل . وأما الجهاز التنفسي فهو عند الرجل أقوى أيضاً حيث ثبت أن الرجل يحرق في الساعة الواحد أحد عشر غراماً تقريباً من الكربون بينما المرأة تحرق

منه في نفس المدة ستة غرامات تقريباً . وبذلك تكون حرارة الرجل أقوى من حرارة المرأة ، وأما المخ الذي هو مركز الجهاز العصبي في الإنسان فمعدل وزنه في الرجل يزيد على معدل وزنه في المرأة بمائة وثلاثين غرام تقريباً، هذا وقد ذكر خبراء آخرون فروقاً أخرى في العظم والدم وحجم الجمجمة وغيرها بين الرجل والمرأة وهي أمور تستلزم بطبعها تخلف المرأة عن الرجل في القوى الفكرية والجسدية، وقال العالم والفيلسوف الغربي الأخر (بردون) .

لا يوجد أي توازن بين قوى الجنسين أبداً حيث ثبت علمياً أن القوى العامة عند الرجل أكثر منها عند المرأة بنسبة ١ / ٣ بالمئة فأي لوم بعد هذا على الإسلام إذا أسقط عنها القيام بمهام الرجل وواجباته . . يقول الأستاذ المرحوم عباس العقاد في كتابه القيّم (المرأة في القرآن) ، أما الأعمال المباحة للمرأة فهي الأعمال المباحة للرجل بغير تميز الا ما تحاط به من حدود الفطرة والمصلحة العامة التي ليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يتساوا فيها الجنسان . . ويمضي العقاد قائلاً : اننا نستطيع بغير تردد ان نفهم بأن المجتمع المثالي ليس هو ذلك المجتمع الذي تضطر فيه المرأة إلى الكدح لكسب قوتها وقوت أطفالها أو تعطل فيه امومتها أو تموت فيه أنوثتها وليس هو ذلك المجتمع الذي ينشأ فيه النسل البشري بغير أمومة وأبوة وأسرة كأنه محصول زراعي أو انتاج حيواني أو صناعي .

وانما المجتمع المثالي كما نفهم هو المجتمع الذي تكون فيه المرأة مكفولة مكفية المؤنة للتفرغ لأداء واجباتها العائلية ومهماتها الزوجية فتزود الأمة بجيلها المقبل على أصلح ما يرجى من سلامة البدن والفكر والضمير . ويستطرد العقاد فيقول : وان حقوق المرأة في دستور القرآن كفيلة لها بكل ما يتطلبه رسالتها الفطرية في هذا المجتمع المثالي السليم . إلى أن يقول :

وفي غير المثالي من المجتمعات لا يحرم الإسلام العمل على المرأة خارج بيتها إذا شاءت أن تعمل عملاً مباحاً في حدود العفة والكرامة بعيدة عن الريبة وخطر فقدان العزض والشرف بالسفور والتبرج والاختلاط مع الرجال كيف كان بلا حدود وقيود . والقول بأن اعطاء المرأة حق العمل خارج البيت متوقف على خلع حجابها وتبرجها لهو قول تافه باطل غني عن الجواب . . . انتهى كلام العقاد . . .

وبعد كل هؤلاء العلماء إليك تصريحاً لعالم روسي شيوعي من علماء الطبيعة وهو (انطوني ميلاف) وقد الّف كتاباً حول الاختلافات الطبيعية بين الجنسين نقل عنه الأستاذ المودودي في كتاب (الحجاب) قوله : ينبغي أن لا نخدع أنفسنا بزعم أن التساوي بين الرجل والمرأة في الحياة العملية أمر هين ميسور . فإن الحق بخلاف ذلك لأن المبادىء الإنقلابية تصطدم دائماً بالواقع وهو هنا أنه لا مساواة بين الجنسين حسب علم الأحياء ولم تكلفهما الفطرة بأعباء سواء .

ثم يتحدث (انطوني ميلاف) عن تجربة المساواة بين الرجل والمرأة في روسيا فيقول :

الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم عوارض الفوضى الجنسية وهي حالة جد خطيرة تهدد النظام الاشتراكي بالدمار . . . انتهى كلام انطوني . . . وجاء في المثل الشعبي الروسي قولهم : « المرأة شعرها طويل وفكرها قصير » .

والخلاصة هي أن الإسلام قد وضع المرأة في مكانها الطبيعي من الحياة وأعطاها من الحقوق وفرض عليها من الواجبات ما يليق بكرامتها ويضمن لها كامل مصلحتها في اطار المصلحة العامة .

ففرض عليها التحجب صوناً لكرامتها وعفتها وحفاظاً على الاخلاق في المجتمع .

وفرض لها نصف نصيب الرجل في الأرث لأن الأرث كسب عفوي غير ناشيء عن عمل أو تجارة من قبل الوارثين والإسلام كما قدمنا يعفي المرأة من كسب المعاش ويلقي نفقتها على عاتق الرجل ويعفيها عن اعطاء المهر ويفرض ذلك على الرجل فالحق والعدل يفرضان أن ينال الرجل في الميراث خاصة ضعف المرأة واعطى الإسلام حق الطلاق للرجل لئلا يقع هذا الأمر الخطير الذي هو أبغض المباحات إلى الله سبحانه في معرض التلاعب ومهب رياح العواطف العابرة كما هو الحال في بلاد الغرب حيث أعطوا حق الطلاق للمرأة فأصبحت المحاكم تعج بتزايد حوادث الطلاق بسبب وغير سبب وصار الطلاق لعبة وهواية للمرأة الغربية فهي تبدل الزوج كما تغير الثوب أو الحذاء .

وأعطى الإسلام حق تعدد الزوجات للرجل تحت شروط القدرة والعدل لحفظ كرامة المرأة أولاً من التبذل والسقوط وبيع العفة والشرف في الدوائر والمعامل والمتاجر وغيرها من أماكن العمل كما نعلم . وثانياً لصيانة الأسرة والأخلاق العامة والفضيلة الإنسانية من خطر تفشي الزنا وآثاره ومقدماته حيث ثبت بشكل لا يقبل النقاش انه كلما قل الزواج وتقلص ازداد الزنا وانتشر كما هو الحال في أكثر بلاد العالم اليوم وقانا الله شر هذا العصر الفاسد انه سميع مجيب .

وأما منع الإسلام للمرأة من تولي القضاء العام والإدارة العامة والقيادة السياسية أو العسكرية . وكذلك اعتباره لشهادتها أمام القضاء نصف شهادة الرجل ، فكل ذلك لما سبق بيانه من أن المرأة تندفع بالعاطفة أكثر من اندفاعها بالعقل والفكر الموضوعي المركز ومعلوم

أن تلك المناصب والمواقف تحتاج إلى الروية والعقل والتفكير أكثر من العاطفة والهوى إذ انها أمور تمس المصلحة العامة في الصميم ، وصدق رسول الله (ص) حيث قال : « لا أفلح قوم حكمتهم امرأة » . . . وقال (ص) : « إذا كان أمراءكم شراركم واغنياءكم بخلاءكم وأمركم إلى نساءكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها . . . » .

الشباب والمجتمع من وجه نظر الإسلام :

وبعد أهمية المرأة في التأثير والمكانة في المجتمع ، تأتي أهمية دور الشباب بوجه عام ونعني به المرحلة الخاصة من عمر الإنسان ما بين سن الخامسة عشرة أوالثامنة عشرة وحتى سن الأربعين سنة وهي المرحلة الممتازة في العمر كله المعبر عنها في القرآن (بالقوة) في قوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً** ﴾ . . الخ ، فالآية الكريمة قسّمت العمرَ الطبيعي للإنسان إلى أدوار ثلاثة وهي عبارة عن دوري ضعف يتوسط بنيهما دور قوة فدوري الضعف هما دور الطفولة والصبا إلى سن البلوغ ثم دور الكهولة والشيخوخة إلى حين الموت وبين الدورين دور القوة وهو دور الشباب الذي يبدأ من حين البلوغ الجنسي في الخامسة عشرة عادة وإلى كمال الأربعين سنة وهي الفرصة الوحيدة للإنسان لكي يستفيد من حياته كلها بأن يعتبر فيه بأخطاء الماضي وينظم فيه الحاضر ويبني فيه المستقبل . لأن في دور الشباب بالذات تتفتح طاقات، الإنسان ومشاعره الروحية والجسمية وتنمو مواهبه وملكاته الشخصية وتنضج قواه وغرائزه ويمتلأ نشاطاً وحيوية ويندفع بجد واهتمام في طريق الحياة للأخذ والعطاء والتأثر والتأثير والسعي والعمل . ولذا يعتبر الشباب محور الأمة

وقطب المجتمع في كل ما يتعرض له من نجاح أو فشل وتقدم أو تخلف ونصر أو هزيمة . وبالتالي فكل أهداف الأمة وآمالها منوط بشبابها ان كانوا صالحين . وبسبب هذا التأثير المهم الذي للشباب في تطوير المجتمع ومصير الأمة وجهت المجتمعات العالمية جل اهتمامها بشبابها تربية وتعليماً ورعاية وعنيت الحكومات والقوانين والنظم العالمية عناية فائقة بالشباب فأحدثت لهم وزارة خاصة ووضعت لشؤونهم برامج وخطط تستهلك شطراً كبيراً من ميزانية الدولة كما هو معلوم ومعروف .

ولكن الحقيقة التي يجب أن نلتفت إليها هي : أن الإسلام قد سبق جميع المجتمعات والحكومات والنظم العالمية إلى الكشف عن أهمية دور الشباب وعظيم تأثيره في المجتمع وكبير خطره في حاضر الأمة ومستقبلها .

فجسد هذا الاهتمام وعبر عنه قولاً وفعلاً بياناً وتطبيقاً على لسان رسوله الأكرم (ص) وسلوكه وسيرة خلفاءه المعصومين (ع) أصحَّ تعبير وأحسن تجسيد وبحكمة دقيقة بعيداً عن الغوغائية والتهريج والإرتجالية والسفه واللعب والعبث كما هو الحال في أكثر ما نشاهده من مظاهر رعاية الشباب عند الحكومات والمجتمعات العالمية ، حيث انهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً **﴿ إلا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾** .

اما الإسلام فقد عرف هذه الحقيقة على واقعها الصحيح ومفهومها الصالح وعمل بمقتضاها ومتطلباتها وفي اطارها المصلحي الجميل عملاً متواصلاً ومركزاً منذ الأيام الأولى لإنبثاقه . أقول عمل بمقتضاها . . . حيث اعتمد الرسول الأكرم (ص) في نشر رسالة الإسلام منذ البداية على نخبة صالحة من الشباب ركز بهم أسس

الدعوة وأقام على جهودهم ونشاطهم الجبارة أركان الرسالة واختارهم أنصاراً لدين الله وممثلين عن رسول الله ومدافعين عن الإسلام بكل غال وعزيز . فكان علي بن أبي طالب أول من دعاه الرسول فأجاب وكان المسلم الأول والفدائي الأول الذي بات على فراش النبي (ص) ليلة الهجرة ومعرضاً نفسه لسيوف قريش المتربصين حول البيت وبذلك نجا محمد (ص) من أيديهم . وكان بعد ذلك قدوة المجاهدين في سبيل الله .

والمثل الآخر هو الشاب المؤمن مصعب بن عمير رحمه الله والذي لم يتجاوز يومئذ الثامنة عشرة من العمر وكان من قبل مترفاً ربيب ثروة ونعمة فبادر إلى الإسلام في مكة . فحاربه أهله واضطهدوه وعذبه أبوه بشدة وقسوة فلم يزدد إلا إيماناً وإخلاصاً لله ورسوله وحضر مع النبي (ص) معركة بدر الكبرى ومعركة أحد التي استشهد فيها رحمه الله . ومصعب هذا أول نائب أرسله النبي (ص) ممثلاً عنه إلى المدينة بطلب من أهلها قبل الهجرة ليعلمهم الإسلام ويمهد المدينة لهجرة الرسول اليها . وقد نجح في تلك المهام نجاحاً باهراً فنشر الإسلام وشوق النفوس حتى كان الرجل لشدة شوقه للإسلام لا يصبر حتى يصل إلى بيته فيتطهر ويطهر ثيابه وينطق بعدها بالشهادتين فكان يلقي بنفسه في بئر أو قليب بالقرب منه ثم يخرج وهو يعصر ثيابه ويقول أشهد أن لا إله إلا الله . . . ومصعب أول من أقام الجمعة والجماعة في المدينة وأسلم على يده خلق كثير وعلمهم القرآن وأحكام الإسلام وترك أهل المدينة بانتظار قدوم النبي (ص) على أحر من الجمر .

والمثل الثالث : هو الشاب الصالح عتاب بن أسيد وكان في العشرين من عمره ولاه رسول الله امارة مكة المكرمة بعد أن فتحها في السنة الثامنة من الهجرة فكان أول أمير على مكة بعد الفتح

وخرج النبي (ص) إلى حرب هوازن في معركة حنين ثم عاد إلى مكة ومنها إلى المدينة فكتب اليه بعض أهل مكة يعربون عن عدم رضاهم عن امارة شاب عليهم وفيهم الشيوخ وكبار السن . فأجابهم الرسول (ص) بكتاب يؤكد لهم فيه خطأ العادة الجاهلية وتقاليدها في اعتبار الكفاءة بكبر السن وان الأكبر سناً هو الأفضل . ثم قال : « ليس الأكبر هو الأفضل بل الأفضل هو الأكبر » يعني أن الفضل بالمواهب والملكات والصفات الفاضلة لا بالسنين والأعوام فعتاب بن أسيد أكبر منكم يا أهل مكة جميعاً بفضله وايمانه وتقواه وان كان صغيراً في السن .

وبقي عتاب بن أسيد والياً على مكة المكرمة ممثلاً لرسول الله فيها حتى توفي النبي (ص) .

والمثل الرابع من الشباب الذين اعتمد عليهم الرسول (ص) في نشر الرسالة فأسند اليهم المناصب الهامة والمراكز الحساسة رغم وجود الكثير من الشيوخ وكبار السن حوله فلم يعتمد عليهم في شيء من المهام المصيرية . . . هو أسامة بن زيد بن رواحة الشاب البالغ ثمانية عشر سنة فقط من العمر وقد اسند اليه النبي (ص) قيادة أخطر جيش جهزه في حياته إلى أخطر جبهة في المعارك الإسلامية خلال عهد الرسول (ص) وضم تحت لوائه الشيوخ وكبار السن من وجوه الصحابة كما هو معروف في التاريخ والسيرة .

هذه بعض الشواهد في سيرة النبي (ص) وإذا تصفحنا سيرة أوصيائه الهادين وخلفائه الراشدين من أهل بيته الطيبين الطاهرين نجد أيضاً شواهد قولية وفعلية على اعتمادهم وثقتهم بالشباب المؤمن في اقامة الحق والدعوة إلى الصراط المستقيم .

فالإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام سئل يوماً من أيم

معارك صفين ضد المتمردين معاوية وحزبه . فقيل له ما الذي أقعدك عن انتزاع حقك في الخلافة بعد وفاة الرسول (ص) فقال (ع) هؤلاء . . . وأشار إلى فرقة من جيشه تشتمل على عشرة آلاف شاب من شباب المدينة وأطرافها » هؤلاء كانوا في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم في ذلك اليوم . والآن فلا نطيل الحديث عن الشواهد والأرقام بل نعود إلى أصل الموضوع .

فنقول متسائلين : كيف الوصول إلى جيل صاعد حقيقة وصالح لقيام المجتمع السعيد ، كيف الحصول على نشأ جديد سالم وشباب ناضج واعي فيعتمد عليه المجتمع في مسيرته التقدمية ونموه العلمي والصناعي وارتفاع مستواه الإقتصادي وتوطيد استقراره واستقلاله السياسي وغير ذلك . . . كيف وما هي الطريقة العملية ؟ .

الجواب : هو أولاً يجب على المسؤولين عن التربية والتعليم القيام بواجبهم على الوجه الصحيح وبدقة واخلاص فبعد قيام الآباء والأمهات بواجبهم التربوي في البيت ورعايتهم للأولاد خارج البيت حسبما مر علينا في الفصل السابق . يبدأ دور المدارس التي يجب أن يقترن فيها تعليم الدين والأخلاق الإسلامية مع تعليم العلوم الأخرى وفي كافة المراحل الدراسية . وقد أشار الى هذه المسؤولية علي عليه السلام ، بقوله . . « وانما قلب الحديث كالأرض الخالية كلما القتى فيها من شيء قبلته » . وفي هذا المعنى قال بعض الأدباء : (ان الغصون اذا قوّمتها اعتدلت . . . ولا تلين اذا صارت من الخشب) .

ان ظاهرة القلق والتشكيك والحيرة التي يعانيها شباب اليوم لهي نتيجة طبيعية لعوامل عدة تجمعت في حياتهم فكان لا بد لها أن تترك في أنفسهم هذا الأثر الخطير الذي أصبح يشعر به كل

المسؤولين في العالم فصاروا يبحثون عن العلاج لهذه الظاهرة المؤسفة وخاصة بعد أن أخذت تنعكس في سلوك الشباب بشكل الإجرام المتزايد واعمال العنف والشدة والهدم والتخريب وغيرها .

أقول صار المسؤولون يبحثون عن الدواء والعلاج بعد أن ثبت لهم أصل المرض ومصدر العلة ، الا وهو : الفراغ العقائدي والجدب الفكري والفقر الأخلاقي الهائل والجوع الشديد إلى الغذاء الروحي ، وغيرها من النواقص والحاجات المعنوية الضرورية .

بداهة أن الشباب الذي لا يحمل عقيدة محددة ثابتة ولا يتمسك بأخلاق معينة وواضحة ولا يسير في حياته على خطٍ معلوم ولا خطّة مرسومة ولا نحوِ هدف معروف . . . هكذا شاب لا بد اما أن يقف مجمداً مبلبل الخواطر مشتت الفكر ، واما ان يخبط في الحياة خبط عشواء على غير هدى وكلا الحالتين خطر عظيم على مستقبل الفرد والجماعة .

والشيء الذي لم يهتدي اليه أكثر المسؤولين في العالم هو سبب هذا الفراغ والجوع والفقر المعنوي الذي يعاني منه شباب اليوم . ولو عرفوا سبب ذلك لهتدوا إلى الدواء الناجع والعلاج الشافي .

والسبب بكل بساطة . . . هو : بُعد الشباب عن الدين والإيمان بالله واليوم الآخر وجهلهم الشامل لكل ما هو من الإسلام والقرآن . وكل علم وثقافة بعيدة عن الدين خالية من عنصر الإيمان بالله ومن الشعور بالمسؤولية أمامه لهو علم ناقص الأثر معدوم الفائدة قائم على شفا جرفٍ هارٍ . . . فتراكم العلوم في ذهن شباب لا يؤمن بالله واليوم الآخر كمثل تراكم البضائع في مخزن تاجر لا يعرف العرض والتنظيم .

والخلاصة : هي أن العلم بحاجة ماسة إلى تربية فكرية وخلقية وتهذيب نفسي رفيع . ومعلوم ان هذه التربية ليست دروساً تلقى فحسب بل هي أيضاً تلقين وتمرين عملي في جو نقي وعلى تربة طيبة وضمن إطار إسلامي خاص يشمل البيت والشارع والمدرسة والمجتمع كله .

ومن ثم فالدولة بكل أجهزتها ووسائلها مسؤولة هي أيضاً عن ايجاد هذا الجو التربوي الخاص وهذا الإطار العام المعين لتربية النشأ الصالح .

أما مجتمعنا القائم ومحيطنا الذي نعيش فيه اليوم فلا يمكن أن ينشأ في ظله نشىء صالح ولا جيل سليم ولا شباب نافع لنفسه ولأمته أبداً .

ترجو النجاة ولا تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

هذا ما يجب على المسؤولين عن التربية والتعليم .

فماذا على الشباب أنفسهم ... هل يجوز لهم أن يتركوا أنفسهم كالريشة في مهب الريح أو كالخشبة على وجه الأمواج تتقاذفهم التيارات من سيء إلى أسوأ وتميل بهم الرياح من جهة إلى أخرى ، أم أن الواجب عليهم أن يكونوا كالصخرة الراسخة في مجرى السيل لا تهزهم الهزائز ولا تقتلعهم العواصف ...

أجل ان الواجب عليهم هو الحال الثانية وهو الموقف الراسخ الثابت وان كان متعباً وصعباً . يجب عليهم أن يتحلوا بالصبر والتعقل والنظر إلى الحياة بعين العقل ومن زاوية المصلحة لا من زاوية الشهوات . وان يعتمدوا على أنفسهم في بناء مستقبلهم وتنظيم

حاضرهم فإنه كما قال المثل المعروف : « ما حك جلدك مثل ظفرك » وهناك مبدءان أساسيان ونقطتان مهمتان حداً يجب على كل شاب أن يلحظهما دائماً ويتحرك في اطارهما .

الأول : هو نقص تجاربهم للحياة وضعف خبراتهم العملية بواقع الأشياء . فلا يغتروا بمعلوماتهم الدراسية وخبراتهم العلمية فإن العلم شيء وتطبيقه على شؤون الحياة شيء آخر ان الخبرة الدراسية تختلف عن التجربة العملية ونتائج التطبيق .

فالمجرب للحياة أقرب إلى السلامة من الدارس والمتعلم بدون تجارب وبدون ان تمر عليه حوادث الدنيا وتقلباتها . ومن هنا ورد في الأمثال : دع الطبيب واسأل المجربا .

وأكثر شبابنا اليوم يجهلون هذه الحقيقة مغرورين بدراساتهم أو شهاداتهم العلمية أو بقوتهم الجسدية . فيقتحمون المهالك ويجازفون في الأمور ويتهورون في اتخاذ القرارات فيضرون ويتضررون .

وطريق السلامة هنا هو أنْ يستشيروا ويسألوا ويتقبلوا النصح من آبائهم الذين هم أكثر منهم خبرة وتجربة وأكثر منهم حباً لأنفسهم وحرصاً على مستقبلهم . وقد أكد الإسلام حسن الاستشارة في الأمور ، وكان رسول الله (ص) يستشير أصحابه في الأمور تدريباً لهم على هذه العادة الحسنة ، وقد مدح الله سبحانه عباده المؤمنين بصفتهم الاستشارية . فقال تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ أي يستشير بعضهم بعضاً في الأمور والمواقف التي ليس فيها بيان وتوجيه في الكتاب أو السنة الشريفة حيث لا قيمة لرأي أحد في مقابل رأي الله ورسوله (ص) وكل اجتهاد في مقابل النص ، باطل لا يصح العمل به .

وجاء في الأثر أيضاً : عليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا

ذكاء الطبع فقد زادتهم الأيام خبرة وتجربة .

والثاني : من النقاط أو المبدئين الذين يجب على الشباب أن يذكروهما ويكونوا حذرين منهما ، هو ضعف الإرادة أمام عواطفهم وشهواتهم التي قد بلغت أوج قوتها فيهم والتي أصبحت تحسّن كل قبيح في نظرهم وتسهل الصعاب والاخطار أمام أعينهم . فعليهم دائماً أن يتذكروا الآية الكريمة في كتاب الله : ﴿ **وما ابرأ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾ وان ينظروا إلى رغباتهم الملحة نظرة تحفّظٍ وحذرٍ ويتفكروا في العواقب ملياً . . ومن ثم جاء في الحديث الشريف : « العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن » ومن جهة أخرى يجب عليهم الابتعاد قدر المستطاع عن كافة المثيرات للعاطفة من أي نوع كانت ، وخاصة عن قرين السوء وأصدقاء الشر وفاسدي الأخلاق ، عملاً بالحكمة المأثورة عن الإمام علي (ع) : « جالس أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبن عنهم . . . إياك ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق » وقال الشاعر الحكيم :

صاحب اخاثقة تحظا بصحبته ... فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذة مما تمر به ... نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وقال الآحر :

لا تربط الجرباء حول صحيحة ... خوفي على تلك الصحيحة تجرب

وقال آخر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينةً ... فكل قرين بالمقارن يتقدى

وفي الحِكم المأثورة : « مثل قرين السوء مثل الحية لين مسها قاتل سمها . . . وفي المثل : إن الطيور على أشكالها تقع » .

والخلاصة هي : ان مرحلة الشباب في حياة الفرد انما هي مرحلة بناء ، وفي حياة الأمة والمجتمع هي مرحلة تحول ، فإن كان الشباب رشيداً ناضجاً واعياً عاقلاً ، فإنه يبني لنفسه مستقبلاً سعيداً ويحول أمته إلى العزة والقوة والكرامة وحياة أفضل ، وإن كان الشباب لاهياً مايعاً سادراً في غيه وغارقاً في شهواته فإنه ولا بد أن يبني لنفسه بيتاً ينهار على رأسه ومستقبلاً يرثي له ولا يغبط عليه وفي نفس الوقت يدفع بأمته إلى الإنهيار المادي والمعنوي وقد أشار إلى هذا المعنى شاعر حكيم ـ فقال :

سكرات خمسى إذا مني المرء بها صار عرضة للزمان . . .
سكرة المال والحداثة والعشق وسكر الشراب والسلطان

وفي الحديث الشريف : « الشباب شعبة من الجنون » .

وفي حكم الإمام أمير المؤمنين (ع) : أصناف السكر أربعة : سكر الشباب وسكر الشراب وسكر السلطان وسكر المال . . .

وسئل حكيم متى يبلغ الإنسان سن الرشد ، فقال متى ما صار يعرف مصلحته ويؤثرها على شهواته .

وسئل الإمام الصادق (ع) ما هو اعظم نِعَمِ الحياة فقال عليه السلام : الشباب الصالح . . .

الفصل السادس

آثار الدين في الفرد والمجتمع

إن دين الإسلام الذي جاء على يد محمد بن عبد الله (ص) من عند الله سبحانه وتعالى هو شريعة كاملة تشمل جميع نواحي الحياة وتلبي كافة متطلبات الإنسان الفردية والإجتماعية فتصلح عقيدته وتهذب أخلاقه وتنظم بيته ومجتمعه بأحسن ما يكون وتتعدى ذلك إلى حياته الاخرى فتشق له الطريق إلى سعادته الخالدة فيها في جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين ، ولهم فيها ما يشتهون . . ولا يوجد في عالمنا اليوم دين أو نظام مثل الإسلام بهذا التكامل والسعة والشمول فهو وحده الدين الذي يستحق البقاء ويليق بالتمسك والعمل به دون سواه مطلقاً .

وإليك بعض آثاره الطيبة والطبيعية التي تترتب على العمل به في الفرد والمجتمع .

فأما في الفرد ، فثلاث فوائد أساسية وآثار عامة يتفرع من كل منها خير كثير ، وهي :

أولاً : اطمئنان الفكر وراحة الضمير والإستقرار والهدوء النفسي .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ترتب هذه الفائدة للإنسان على تمسكه بالدين في عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ وقال سبحانه في وصف المؤمنين المتمسكين بالدين ، قال عنهم : ﴿ **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . .** ﴾ .

ودلت الإحصاءات والتجارب على أن المتدينين المؤمنين بالله سبحانه أصح ابداناً واطول اعماراً وأجمع الأطباء في عصرنا الحاضر على أن التوتر النفسي والقلق هما المصدران الأساسيان لكل العلل والأمراض كما أنهما السببان الرئيسيان في استمرار تلك العلل ودوامها ، وقد بذل العلماء جهوداً جبارة وقاموا بمحاولات كثيرة لإيجاد أفضل الوسائل لمكافحة التوتر والقلق والخوف والفزع والتخلص من الأفكار المشوشة فلم يجدوا لذلك سبيلاً أحسن ولا وسيلة أضمن من الإيمان بالله والتوكل عليه والعمل بشريعته .

وقد تعرض لهذه الحقيقة كتّاب كثيرون أذكر منهم الأستاذ عبد الرزاق نوفل في كتابه المسمى (الإسلام والعلم الحديث) ينقل فيه عن أحد الأطباء العالميين قوله : ان جميع المرضى الذين راجعوني خلال مدة تقارب الثلاثين عاماً ومن كل انحاء العالم كان السبب في أمراضهم هو التوتر النفسي والقلق ولم ينل أحد منهم الشفاء الكامل الا الذين استعادوا ايمانهم وثقتهم بالله تعالى ، وأكد علماء النفس ذلك أيضاً وقالوا إن ذلك أمر طبيعي .

لأن الإنسان المؤمن بالله الحكيم القدير يكون قد اخترق بإيمانه هذا جدار السجن المادي وخرج عن مدار الطبيعة الضيق وارتفع فوق الأسباب والعوامل العادية التقليدية وانطلق إلى أجواء القدرة المطلقة التي لا تعرف المستحيل وآمن بالقوة التي لا حدود لها ويشعر بضمان خيره ومصلحته في الحياة من قبل طاقة رحيمة حكيمة عالمة بكل شيء وهي على كل شيء قادرة . . . وهي الله سبحانه وتعالى . وبهذا الشعور يكسب الرضا بما لا بد منه والقناعة بما أصابه والتفاؤل الدائم بحوادث الحياة فهو (هش بش) كما وصفه الحديث الشريف . المؤمن هش بش ، أي منبسط الوجه ، باسم الثغر ، طلق المحيا ، طيب الكلام ، حسن الخلق . لأنه واثق بحكمة الله وحسن

تقديره وعدالة حكمه . . . هذا بالإضافة إلى أن العمل بدين الله والتقيد بأحكام الإسلام بصورة شاملة كاملة يدرءان عن الإنسان تلك الأخطاء والأسباب الموجبة للقلق والتوتر غالباً . لأن الإسلام لم يترك زاوية في حياة الإنسان إلا ودخلها بالتنظيم والتوجيه والبيان . وسلط أضواءه على الحياة عامة بكل ما قد يحدث فيها مبيّن طريق الحق والخير فيها عن طريق الشر والباطل . ووضع الحلول الصحيحة لجميع مشاكل الإنسان في العالم الشخصية منها والإجتماعية .

فالتوتر والإنزعاج والهم والغم والقلق . . كلها انما تنشأ من أسباب ومصادر منها مشاكل الأسرة مثلاً ، وقد وضع لها الإسلام تعاليم وقائية أولاً ثم حلولاً علاجية ، كما سبق أن ذكرنا بعضها في الفصول السابقة .

ومنها مشكلة الفقر مثلاً : وهذه المشكلة أيضاً قد اتخذ لها الإسلام اجراءات وقائية فعالة تمنع حدوث مشكلة الفقر من المجتمع أصلاً ، كما وضع لعلاجها ورفعها قوانين علاجية ناجعة لو عمل بها بدقة واتقان وسنتحدث عن تلك الإجراءات والقوانين في فصل قادم بإذن الله .

ومشاكل أخرى مثل المرض والجهل والظلم وغيرها وكلها واردة في اعتبار المشرع الإسلام وملحوظة في قوانينه الإجتماعية العامة . ومدونة في الكتاب والسنة وكتب العلماء ورسائل الفقهاء بشكل مفصل . وصدق الله تعالى حيث قال : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا . .** ﴾ الخ .

وثانياً : قوة الإرادة وملكة التصرف الحكيم ضد دوافع الغريزة وتيار العواطف وضغط الشهوات وترتب هذا الأثر على التدين وحصول هذه الفائدة للإنسان المتدين أمر طبيعي أيضاً لأن الإيمان

بأن الله تعالى الذي يراك ويعلم سرك ونجواك ثم بأنه سيحاسبك على ما عملت ويجزيك بالطاعة خيراً وبالعصيان عذاباً في نار جهنم . . هذا الإيمان إذا بلغ حد الكمال واليقين القطعي فإنه يردعك حتما عن العصيان ويقويك على مجاهدة النفس الأمارة بالسوء وضبط غرائزها . ومن هنا جاء في الأمثال : من أيقن بالخلف جاد بالعطية ومن أمن العقوبة أساء الأدب .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة موقف يوسف الصديق (ع) من اغراء المرأة ويقال في تفاصيل الموقف ان زليخا زوجة العزيز عمدت إلى صنم في البيت فغطته ولما سئلها يوسف (ع) عن سبب ذلك قالت أنه معبودي وأنا أستحي منه . فقال لها يوسف (ع) أن معبودك هذا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وأنت تستحين منه فكيف لا أستحي أنا من الله سبحانه وهو معنا ويعلم سرنا ونجوانا . ثم قام إلى الباب هارباً من الفاحشة .

أجل أن الإنسان إذا آمن بالله والسمؤولية أمامه استحا منه أو خاف عقابه على الأقل الا ترى أيها القاريء الكريم انك لو رأيت قطعة من الذهب مثلاً في وسط نار تشتعل لا تقدم على أخذها مهما كانت مغرية لأنك تعلم بما يصبك من ألم النار إذا أقدمت على ذلك .

والخلاصة هي : انه لا شك ولا تردد في أن الإيمان الكامل بالله وصفاته ثم بالمعاد وحسابه وبالقرآن ووعده ووعيده . كل ذلك يمنحك تصلباً في عزمك وصلابة في ارادتك وسيطرة على شهواتك وحصانة ضد نزواة نفسك . تماماً كما قال الله تعالى لأبليس : ﴿ **ان عبادي ليس لك عليهم سلطان** . . . ﴾ الخ ، وجاء في الحديث الشريف : « المؤمن كالجبل لا تهزه العواصف » ، وقال تعالى :

﴿ ان الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين . . . ﴾ الخ ، وأخيراً قال الإمام علي (ع) في بعض خطبه : « أن التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه إلا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى . . » الخ .

وثالثاً : سلامة الجسم وصحة الجسد من أكثر الأمراض والعلل والأسقام التي يتعرض لها الإنسان ، وترتب هذه الفائدة على الدين للإنسان المتدين أيضاً هو ترتب طبيعي وأثر وضعي ناشيء عن تعاليم الإسلام وأحكامه الوقائية . قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) للطبيب الهندي الذي اجتمع به عند المنصور الدوانيقي العباسي فعرض عليه الطبيب الهندي أن يزوده ببعض التعليمات الصحية فقال الإمام (ع) أنا في غنى عن علمك فقال وكيف قال عليه السلام لأني أعمل بقول الله عز وجل : ﴿ **كلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ وبقول رسول الله (ص) : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء . . الخ » . وفي الحديث الشريف : « لا تجعلوا بطونكم مقابراً للحيوان . . » ، وفي حكم الإمام أمير المؤمنين (ع) : « من أراد البقاء ولا بقاء فليبكر بالغذاء وليخفف من طعام العشاء وليقلل من مقاربة النساء وفي الحديث الشريف نحن اناس لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لا نشبع » وقال علي عليه السلام « اجلس على الطعام وانت جائع وقم عنه وانت تشتهيه وجيد المضغ » .

والخلاصة هي : إن الإسلام بعمومه يشتمل على أوامر ونواهي وتوصيات وتعاليم تشكل المبادىء العامة للوقاية الصحية وتضع الخطوط العريضة لمبادىء علم الطب . ومن صميم أوامره وتوصياته مراجعة الطبيب عند الشعور بالمرض واستعمال الدواء وعدم الإتكال على الأوهام والمعجزات وقد اعترف الإسلام لعلم الطب بأهمية

كبرى ومقام ضروري في المجتمع الإنساني ففي كلمة للإمام الصادق (ع) قال لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاث : « حاكم عادل وطبيب حاذق وفقيه ورع وان عدموا ذلك فهم همج رعاع . . » ، وقال الإمام علي (ع) : « العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان » . . .

وعلى ذكر أن الإسلام يشتمل على مباديء الطب وأصول الوقاية الصحية . قال الكاتب والمؤرخ الإنكليزي الشهير (ولز) كان محمد (ص) زراعياً وقانونياً وقائداً عسكرياً وطبيباً . ويكفي ان قوله المأثور : « نحن أناس لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » هو الأساس الذي بني عليه علم الصحة الحديث ولم يستطع الأطباء على كثرتهم ومهارتهم حتى اليوم أن يأتوا بنصيحة أثمن من هذه » .

وقال بول أرنست : وهو دكتوراه في الطب ، قال في تصريح له أن الإيمان الكامل بالله تعالى يؤثر في شفاء الأمراض العصبية والعضوية والنفسية معاً . وهو من أكبر عوامل المناعة في الإنسان ضد المرض ومن أهم شرائط العلاج ، إلى أن يقول : ان الجسم الإنساني يصبح على أفضل ما يمكن من الصحة عندما يكون على وفاق مع صانعه وخالقه ، وبدون ذلك يصيبه الإضطراب والمرض .

وبهذا القدر ننهي الحديث عن فوائد الدين للفرد وننتقل الآن إلى ذكر ما يؤثره الدين في المجتمع وما يستفيده المجتمع إذا كان متديناً .

ويمكننا تلخيص تلك الفوائد في ثلاث أيضاً .

أولاً : القوة والصمود في وجه العدوان الخارجي وأمام الكوارث الطبيعية . فلا ينهزم ولا ينهار وذلك بسبب الوحدة الحقيقية والتضامن الواقعي الذين يخلقهما الدين بين الأفراد والطبقات ، وحدة في الدوافع والأهداف وحدة في القيادة والعمل ثم تعاون

وتضامن على البر والتقوى وتواصي بالحق وتواصي بالصبر الخ وبذلك يجعلهم كالصخرة الصماء تتحطم عليها المحاولات العدائية ولا تؤثر فيها الضربات الخارجية . وهذا ما يراد بقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ أجل أن عظمة الأمة لا تقاس بكثرة أفرادها ولا سعة أراضيها وانما تقاس بوحدة ابناءها وتكاتفهم . ولا شك أن دين الله والإيمان به أعظم رابط يجمع وأقوى جامع يشد الأفراد بعضهم ببعض . كما ثبت ذلك بالتجارب العديدة ونص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألّف بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم . . ﴾ الخ ، وقال تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ﴾ واكبر شاهد على هذا هو المجتمع العربي بعد أن اعتنق الإسلام وآمن بالله العلي القدير فصار بذلك آمة واحدة متحدة رحماء بينهم أشداء على الكفار ويؤثرون بعضهم بعضاً على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

وبقوة تلك الوحدة استطاعوا القضاء على الدولتين العظيمتين في العالم آنذاك دولة القياصرة في الغرب ودولة الأكاسرة في الشرق وكوَّنوا أعظم امبراطورية عرفها التاريخ مطلقاً ودامت تلك الأمبراطورية ما يقارب الألف سنة لا يعارضها في سيادة العالم شيء .

وبعد ذلك لما حلوا عن أنفسهم رباط الإسلام وانسحبوا من الجامعة الدينية أخذوا ينهارون شيئاً فشيئاً حتى أصبحوا أضعف أمة عرفها التاريخ بسبب تفرق كلمتهم وشتت صفوفهم واختلاف أهدافهم وتعدد قياداتهم ﴿ ان في ذلك لعبرة لقوم يعقلون ﴾ .

قال المرحوم طه حسين في كتابه مرآة الأيام : « إذا كان هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا اليها ويقيموا عليها أمرهم في الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساسا للوحدة القديمة ولكن يظهر ـ ويا للأسف ـ أن أكثر العرب اليوم سائرون في ركاب الغرب وقوانينه ونظمهِ القاصرة الفاشلة التي طالما جرت علينا وعليهم الويلات . ان العرب اليوم متأثرون بأقطاب الإستعمار الذين يحشدون جميع قواهم المادية والمعنوية لمحاربة دستور القرآن وأبعاد المسلمين عن حكمه ليحولوا بينهم وبين النهوض وفقاً لوصية سلفهم السابقين الذين أعلنوا أنه ما دام القرآن بأيدي المسلمين فلا نقدر عليهم ولا نجاة لنا منهم . . .

وختم الدكتور طه حسين كلمته بقوله : حتى أن جامعة أكسفورد في انكلترا جعلت كرسياً خاصاً لإبتكار الطرق لمحاربة الإسلام وآخر محاولاتهم بالإشتراك مع اسرائيل ان ترجموا القرآن بصورة مشوهة ومحرفة ومغلوطة إلى اللغات الأجنبية ، فأين المسؤولون عن الإسلام والقرآن»

ثانياً : الأمن والاستقرار . . وتحقق هذه الفائدة للمجتمع المتدين بالإسلام أمر طبيعي وحتمي أيضاً ، بسبب التنظيم الإجتماعي العادل والشامل الذي بقيمة الإسلام من جهة ، والعقوبات الصارمة التي وضعها للعابثين بالأمن والمعتدين على الحقوق من جهة أخرى .

بالإضافة إلى الحكام الأكفاء والأمراء الصالحين والولاة العادلين الذين تناط بهم المسؤولية في جميع مناصب الدولة ومراكز الحكم . . .

فالسارق ، مثلاً تقطع يده إذا سرق ما قيمته ربع دينار فصاعداً ولكن في حال عدم وجود مبرر معقول كالجوع أو الحاجة الماسة مثلاً .

والزانية والزاني يقتلان ، ولكن إذا كانا متزوجين أما إذا كان أعزبين ولم يكن باستطاعتهما أن يتزوجا ففي هذه الحال يجلد كل واحد منهما مائة جلدة وربما يخفف عنهما ذلك أيضاً إذا وجدت حالات اضطرارية أخرى وعلى هذا القياس باقي الجرائم الأخرى التي يعاقب عليها الإسلام ، فإنه يأخذ الحالات الخاصة والظروف الشخصية الشاذة بعين الأعتبار . ولقد استطاع الإسلام بهذين العنصرين : العدالة الإجتماعية ، والعقوبات الصارمة ، أن يقيم مجتمعاً بشرياً يسوده الأمن والأستقرار بشكل لم يسبق في التاريخ مثله بدون اللجوء إلى تشكيل قوى الأمن الداخلي أو غيرها . الأمر الذي عجزت عن تحقيقه كل دول العالم وحكوماته اليوم مع ما تتمتع به من طاقات مادية وأجهزة مراقبة ووسائل استخبارات ، وذلك واضح الأسباب وهي أن هذه الدول والحكومات تخلق أسباب الإجرام وتفجّر ينابيع الشر في المجتمع وتدعو الناس بكل وسائلها أن حيًّا على الفساد والذنب . . ثم تشكل قوى الأمن وتقيم المحاكم للقبض على المجرمين ومحاكمتهم . . يا للسخرية والمهازل ، يا للحمق والسفة .

ان مثل هذه الحكومات مع الناس اليوم كما قال ذلك الشاعر القديم :

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له   ايّاك ايّاك أن تبتل بالماء

أيها القاريء الكريم يؤسفني أشد الأسف أن لا أجد في العالم اليوم بلداً إسلامياً واحداً بكل معاني الكلمة فأوجه نظرك اليه فترى

بأم عينك فردوس الأمن والأمان الذي يتمتع به المجتمع في ظل الدولة الإسلامية ونعمة الحرية التي يتمتع بها الفرد في ذلك المجتمع حرية القول والفعل والعمل والفكر والرأي والعقيدة ما لم يضر بالآخرين ، حرية الكسب والتعليم والتأليف والنشر ما لم يظلم ويعتدي على غيره . . أجل يؤسفني الا أجد مثل هذا المجتمع في عالمنا اليوم .

ولكن رغم ذلك يمكنني أن ألفت النظر إلى بعض البلدان القليلة في العالم التي لا تزال تحمل آثاراً ضعيفة وبسيطة من المجتمع الإسلامي القديم للمقارنة بينها وبين باقي أقطار العالم المتمدن بالمدنية الغربية مئة بالمئة فيظهر الفرق الكبير في نسبة الأمن والاستقرار الإجتماعي التي يتمتع بها كل من الفريقين . وصدق الله سبحانه حيث يقول : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾ هذا القصاص يعني قتل القاتل والذي قد الغته دول كثيرة في العالم زعما بأنه عمل وحشي ، صاروا الآن يفكرون بإعادته والعودة إلى العمل به بعد أن ارتفعت نسبة الجريمة بالغاءه ارتفاعاً مفزعاً . . . أما السرقات والسلب والاختطاف والاغتصاب وغيرها من الجرائم فقد انتشرت في تلك المجتمعات المتمدنة بشكل عجيب وخطير وشاع الفساد وعم فيها الفوضى حتى فر الناس خوفاً وذعراً من سكنى الأطراف النائية ولم يأمنوا مع ذلك وهم في قلب المدن الكبيرة أما المدن النائية والقرى الصغيرة والطرق والمرتفعات الجبلية فلا تسأل عما يبتلى به الناس فيها من عبث المجرمين الذين استسهلوا الجريمة لما أمنوا العقاب أو تحاقروه فما أعظم حكمة الله سبحانه حيث أمر بتشديد العقاب على العابثين بالأمن والمتمردين على القانون فقال تعالى : ﴿ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ان يقتلوا أو يصلّبوا او تقطّع أيديهم

وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . . . ﴾ الخ .

والخلاصة هي : أن الأمن العام الحقيقي والأمان الإجتماعي الشامل هو طابع خاص يميز المجتمعات المؤمنة بالله والمتدينة بدين الله عن باقي المجتمعات وذلك بواسطة الإجراءات الحكيمة التي اتخذها الإسلام لتحقيق هذه الغاية الكبرى . وهذه الإجراءات الحكيمة تتلخص في أمور خمسة أولاً : التربية الصالحة ونشر الوعي الاجتماعي . ثانياً : النظام الإجتماعي السليم العادل بكل فروعه . ثالثاً : اختيار الحكام الأكفاء الصالحين لتسلم زمام المسؤولية . رابعاً : فرض مراقبة حفظ النظام على كل أفراد المجتمع بفريضة الأمر بالمعروف . خامساً : العقوبات الصارمة والقصاص . . . وأخيراً نكرر القول أن السلام في المجتمع المسلم فحسب وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . .** ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . .** ﴾ الخ .

ثالثاً : الرفاه الإقتصادي .

وهذه الظاهرة أيضاً أثر طبيعي يلازم المجتمع الملتزم بالإسلام عقيدة ونظاماً ، فالعقيدة الإسلامية تدفع المجتمع إلى التعاون فيما بينه فيعيل غنيه فقيره ويساعد قويه ضعفاءه ويرحم كباره صغاره كما وصفهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **رحماء بينهم . .** ﴾ الخ ، وقوله تعالى : ﴿ **انما المؤمنون أخوة . .** ﴾ الخ ، وكيف لا يكونوا كذلك بعد قول الرسول الأكرم (ص) : « لا والله لم يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع » . . . وقوله (ص) : « من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » . .

وأما النظام الإسلامي .

فإنه يتضمن أحكاماً لا يمكن أن يتسرب الفقر إلى المجتمع في ظلها ولا يحدث معها تمايزٌ إقتصادي فاحش لأن تلك الأحكام تحدد أولاً موارد الملكية وطرق كسب المال ، ثم تفرض على الأرباح والمحاصيل رسوماً وحقوقاً تحفظ بها التوازن الإقتصادي بين الطبقات ، فلا تترك فيه عوزاً وفقراً مدقعاً في جهة ولا ثراء فاحشاً وتضخم ثروة في جهة أخرى .

ولقد ثبت بالشهرة والتواتر ان الازدهار الإقتصادي في المجتمعات الإسلامية في العصور السابقة بلغ من القوة والتقدم إلى حد لم يكن يوجد فيها فقراء توزع عليهم الزكاة فكانت الزكاة من الحبوب والأنعام تنقل من بلد لآخر فلا يوجد من يأخذها وأخيراً كانت تباع ويصرف ثمنها على المشاريع الإجتماعية كالجسور والقناطر والسدود وشبهها .

وليس ذلك عجيباً أبداً بل هو مقتضى طبيعة النظام الإسلامي ولوازمه العادية بسبب واحد بسيط وهو انه من صنع الله الذي أتقن كل شيء ووضع العليم الحكيم جلَّت عظمته . ان أكثر من ثلث سكان العالم في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في عصرنا هذا يعانون من الفقر والحرمان ويموت المئات منهم جوعاً في كل يوم . . لماذا وما هو السبب الحقيقي في ذلك .

أجل ان السبب الحقيقي وراء هذه الظاهرةَ المؤسفة والواقع المخزي هو فساد الأنظمة وتقصير المسؤولين باعتراف الخبراء في هذا العصر . . . الأنظمة الإحتكارية التي وضعها بشر جاهل منقاد لأهوائه وعواطفه ، والحكام الإستعماريون الديكتاتوريون الإنتهازيون ، وعلى هذه الأنظمة وهؤلاء المسؤولين صدق المثل الشعبي المعروف حاميها حراميها » .

والخلاصة هي : ما قاله الإمام أمير المؤمنين (ع) في كلمته

الذهبية الخالدة . وحكمته القيمة في نهج البلاغة . . . ما رأيت نعمة موفرة إلا وبجانبها حق مضيّع . . . « ما متع غني إلا بما حرم منه فقير » وحاصل هاتين الكلمتين هو ان الفقر في المجتمع ناشىء في الأعم الأغلب » .

من عدم العدل في توزيع الثروة وأخذ البعض أكثر مما يستحق على حساب البعض الآخر . الأمر الذي يحاربه نظام الإسلام ويمنع من حدوثه مطلقاً ولقد أعطى القرآن الكريم صورة واضحة عن المجتمع المتدين المتميز بالأمن العام والرفاه الإقتصادي والقوة الرادعة . فقال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ القرية . . . تعني المجتمع . أي مجتمع . وآمنة يعني على حاضرها من الداخل والخارج ، مطمئنة : يعني على مستقبلها كذلك ، يأتيها رزقها رغداً. أي طيباً هنيئاً وبكثرة ووفرة فهي في رفاه معاشي تام من كل مكان . أي سواء من الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو غيرها من وجوه الكسب ومصادر الرزق . . وقال سبحانه في الآية الأخرى : ﴿ **ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله وكتابه ، واتقوا : أي عملوا بدين الله وطبقوا نظامه ، وبركات السماء الأمطار ورياح الخير والرحمة ، وبركات الأرض النبات والمعادن وسائر الثروات الأخرى في البر والبحر . .

وإلى هنا ننهي الحديث عن آثار الدين في الفرد والمجتمع وقد ذكرنا أهم تلك الآثار وأصولها العامة واما الفروع والموارد الجزئية فكثيرة وفقنا الله جميعاً أفراداً وجماعات للإيمان به والعمل بدينه والاستفادة من شريعته انه سميع مجيب .

الفَصْل السَابع

الدِّينُ والسّيَاسة العَامة

السياسة في أصل اللغة تعني القيام على الشيء بما يصلحه ، كذا في مجمع البحرين ، وأما في العرف العام والمصطلح الحديث فتعني تسير دفة الحكم وإدارة شؤون الدولة في الداخل والخارج . والسياسة بهذا المعنى الأخير لها صورتان : الأولى : هي التي تقوم على أساس خدمة الأمة وتدور في اطار المصلحة العامة هدفها الأول والأخير هو تحقيق الخير والعدل للجميع ولو اقتضى ذلك تضحية ببعض المصالح الشخصية بما في ذلك مصلحة الحاكم بالذات وشعارها الصدق والأمانة والوفاء . . .

والصورة الثانية : هي على العكس من الصورة الأولى والتي تقوم على أساس خدمة المصالح الخاصة وفي مقدمتها مصلحة الحاكم نفسه وتدور في إطار بقاء الحاكم في دست الحكم بأي ثمن ولو كان ذلك الثمن مصلحة العباد والبلاد جميعاً فيما إذا تعارضا ولم يمكن الجمع بينهما . وشعارها عدم التقيد بشيء من المثل العليا والاخلاق فلا تتورع عن الغدر والخيانة والكذب وغير ذلك إذا اقتضى الأمر . . . وقد أسهب الفلاسفة والعلماء السياسيون من الشرق والغرب في شرح هاتين السياستين واختلفت آرائهم حولهما بالأشادة والتصويب أو النقد والتنديد بكل منهما فمن الفلاسفة الشرقيين هو العلامة الشهير (ابن خلدون) صاحب المقدمة المعروفة باسمه فانه يشرح فيها كلاً من السياستين ويستصوب السياسة الأولى القائمة على الحق والعدل للجميع وإيثار المصلحة العامة على كل مصلحة فردية إذا دار الأمر بينهما .

ثم يشيد ابن خلدون بهذه السياسة ويشرح آثارها الجميلة

ونتائجها الحسنة وفوائدها الجمة للفرد والمجتمع . ويقول في آخر كلامه : ما حاصله ، ان الساسة والحكام إذا ساروا على هذه السياسة فإن المجتمع يتربى عليها وينشأ الجيل على هديها ويتخلق الناس بها لأن الناس بالطبع والعادة على دين ملوكهم ويقتدون بهم . . . وفي هذه السياسة مصلحة الحكام أنفسهم أيضاً لأن العدل أساس الملك . . . ودخل رجل إلى المدينة ليواجه الخليفة فوجده نائماً في المسجد وحده فقال الرجل (عدلت فأمنت فنمت) . .

ومن الفلاسفة الغربيين الذين تعرضوا لذكر هاتين السياستين في العالم وشرحهما . هو الفيلسوف الغربي المعروف باسم (مكيافيل) وهو بعكس ابن خلدون يسهب في وصف وشرح السياسة الإنتهازية الثانية القائمة على خدمة مصلحة الحكام بكل وسيلة والاحتفاظ بالحكم ولو على حساب الشعب ومصلحة الأمة ويرى أن السياسي يجب أن لا يتقيد إلا بمصلحة الوقت ومقتضى الظروف التي تحفظ له السلطة وتبقيه على كرسي الحكم . فإن اجتمع هذا الهدف مع تحقيق المصلحة العامة وأمكن تحقيقه عن طريق رعايتها وخدمتها . فبها ونعمت ، وان تعارضا فلا يتقيد بشيء غير الاحتفاظ بالملك بعيداً عن كل ضمير ووجدان وعقلٍ وذوق ، وهذا هو السياسي القدير والحاكم المحنك وتعرف هذه السياسة بـ « المكيافيلية » . . .

هذه خلاصة رأيين متضاربين حول السياستين العالميتين لاثنين من أشهر فلاسفة الشرق والغرب والآن : السؤال هو . . . ما موقف الدين من هاتين السياستين والرأيين المختلفين فيهما ؟ .

والجواب هو : ان الدين يتبنى السياسة الأولى وان العلامة ابن خلدون عبر عن وجهة نظر الدين في رأيه المذكور وهذا هو رأي الدين بالضبط ، أن الدين يتبنى السياسة القائمة على احقاق الحق

وازهاق الباطل في المجتمع كله والعمل بكل الوسائل لخدمة المصلحة العامة وعامة المصالح والتضحية بمصلحة أي فرد كان حتى الحاكم نفسه في سبيل الدفاع عن المصلحة العليا . كما ضحى الخليفة الشرعي الأول لرسول الله (ص) علي (ع) ضحى بكل مصالحه ومصالح أهل بيته وصبر على اغتصاب السلطة الشرعية منه وكان قادراً على استرجاعها بقوة السيف . ولكن رأى أن ذلك يعرض المصلحة العامة الإسلامية العليا للخطر فصبر على مضض وقال في خطبته الشقشقية الشهيرة (فصبرت وفي العين قذا وفي الحلق شجى أرى تراثي نهبا . . . فصبرت على طول المدة وشدة المحنة) وكما ضحى باقي الخلفاء الراشدين من آل الرسول عليهم السلام بمصالحهم لأجل الحفاظ على وحدة كلمة المسلمين وبقاء كلمة لا إله إلا الله محمدا رسول الله (ص) .

أما غيرهم . . وهم كافة الحكام الذين حكموا الأمة بعد وفاة النبي (ص) من الذين يسمون بالراشدين ثم ملوك الأمويين بعدهم ثم العباسيين وغيرهم فقد شذوا عن سياسة الإسلام من حيث العموم وتبنوا السياسة الإنتهازية الجانبية بكل سماتها ومميزاتها فاستخدموا الإسلام وسيلة لوصولهم إلى السلطة ثم جعلوا مصلحة الأمة ككل جسراً إلى تركيز ودعم وابقاء حكمهم وسلطانهم .

أجل ان أهل البيت عليهم السلام هم وحدهم الذين استمروا على سياسة محمد (ص) وخط الإسلام في سياسته العادلة وتمسكوا بها وطبقوها على سلوكهم رغم انها كلفتهم جهداً عظيماً وثمناً باهضاً من حقوقهم وحياتهم ، وأدت بهم الى الفشل في أكثر حركاتهم الثورية ونهضاتهم الإصلاحية لأن خصومهم كما ذكرنا كانوا لا يتورعون عن استخدام أي وسيلة مهما كانت خسيسة ودنيئة ومحرمة شرعاً وعقلاً لغاياتهم العدوانية الشريرة . كالعنف والتضليل والأرهاب

الفظيع والمساومة والرشوة وأمثالها من الوسائل التي تحرمها السياسة الإسلامية وتمنع من استخدامها مطلقاً . وهذا الفشل الذي لاقاه علي وأبناءه (ع) في حياتهم السياسية هو بسبب تمسكهم بسياسة الحق والعدل . ولولا ذلك لضاع الحق والعدل وانمحت آثارهما في العالم . اقول إن هذا الفشل اتخذه أعدائهم ذريعة للطعن في كفاءتهم واثبات عجزهم وقصورهم عن الادارة وقيادة الأمة كما انهم اتخذوا تغلب خصومهم الذين ساروا على سياسة المكر والخداع والنفاق . اتخذوه دليلاً على لياقة أولئك الخصوم للأمر وأحقيتهم بالسلطة . وقد نسي هؤلاء الأعداء أو تناسوا أن علياً وأبناءه الطاهرين (ع) لو تخلوا عن التقيد بالسياسة الإسلامية وأحكام القرآن لما استطاع اعدائهم وخصومهم الوقوف أمامهم لحظة واحدة . ولكن كيف يفعلون ذلك وهم ممثلو النبي (ص) وخلفاءه الشرعيون الذين يقتدي بهم المسلمون ويهتدي بهداهم المؤمنون . كيف يفعلون ذلك وهم القرآن الناطق وعِدل الكتاب وحجج الله على عباده وأمنائه على رسالته والمثل الإسلامية العليا للأجيال إلى قيام الساعة . وما أجمل كلمة الإمام أمير المؤمنين (ع) بهذه المناسبة حيث يقول : « والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . قد يرى الحُول القُلّب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله فيدعها رأي العين وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين » . .

ويقول الأستاذ جورج جرداق في هذا المقام لقد أرادوا من علي (ع) أن يكون معاوية وأبي هو الا أن يكون عليا . . أن خصوم علي (ع) وأبنائه المعصومين ساروا على المبدأ القائل (الغاية مهما كانت تبرر الواسطة أياً كانت) بينما سار علي وأبنائه (ع) على المبدأ القائل : (الغاية الشريفة تبرر الواسطة الشريفة) وهذا كما

ترى فرق كبير بين المبدأين . ولا يمكن أن ينجح المبدأ الثاني وينتصر على المبدأ الأول الا في مجتمع مكتمل التربية ناضج الوعي حي الضمير عميق الإيمان بالمبدأ والمعاد بالحق ·والعدل وبقدسية المصلحة العامة . . . وهذا ما كان يفقده . ويا للأسف ، ذلك المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول (ص) قال تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ أجل أن المسلمين فقدوا التربية الإسلامية والتوجيه الروحي والتنمية العقائدية والتغذية المعنوية والتقدم الخلقي . . فقدوا كل ذلك بموت النبي (ص) وانتقال السلطة إلى أناس اتجهوا بالمسلمين وجهة المادة والمصالح الخاصة ووجهوا أفكارهم نحو التوسع المادي والتكاثر والتكالب واقتناص الفرص للوصول إلى الشهوات والاهواء وكنز الأموال واقتناء الجواري والضياع والقناطير المقنطرة والخيل المسومة ونيل المناصب والامارات .

فصارت آراء المجتمع وتأيداته معروضة للمزايدة العلنية ينالها من يدفع الثمن الأعلى والأكثر من تلك الشهوات . . فطبيعي إذاً في هكذا مجتمع أن يتغلب الشر ويظهر الباطل . لا لنقص في الحق والخير وانما لنقص المجتمع وتخلفه الفكري ولجهل الناس . وهذا منطق الحياة وسنة الله في الكون ، قال سبحانه : ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

ولقد لخص الإمام علي (ع) أسس هذه السياسة الإسلامية الإنسانية وحددها أصولاً وأركاناً وفروعاً في عهده الخالد إلى واليه على مصر مالك الأشتر رحمه الله . والموجود في نهج البلاغة بشروح وافية . وإليك هذه النماذج من بعض فصوله . . قال عليه السلام فيه بعد المقدمة .

« واعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول

قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السن عباده فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الأنصاف منها فيما أحبت وكرهت . . » الخ .

وجه عليه السلام نظر وإليه على مصر في هذه الفقرات إلى عدة أمور : الأول : أن البلاد التي تحكمها أنت هي بلاد عريقة الحضارة قديمة التاريخ شاهدت ألوان عديدة من النظم والسياسات والحكومات الصالحة منها والفاسدة والعادلة والظالمة . وكل بلاد كهذه يكون شعبها واعياً يقظاً قد أفادته التجارب خبرة ومعرفة وقدرة على التميز بين الخير والشر والحق والباطل فهم يحاسبونك على تصرفاتك ويسألونك عن مواقفك وقراراتك وأحكامك فيجب أن تحاسب نفسك قبل أن يحاسبوك وتجعل ضميرك حكماً بينك وبينهم فلا ترضى لهم من نفسك ما لم تكن ترضاه لهم ولنفسك من الحكام السابقين وبالتالي يجب عليك ان تتجنب الأغلاط والمآخذ التي حدثت من الأمراء السابقين وان تتطلب مرضاة الرأي العام وثناء الجماهير لأنهما . أي كسب الرأي العام وثناء الناس دليلان على صلاح الحكام ورضا الله سبحانه عليهم بناء على ما ورد في الحديث الشريف : « السنة الخلق اقلام الحق » ، والحديث الأخر: « الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » .

ثم استطرد عليه السلام في هذه الوصية قائلاً . . .

وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم ولا تكونن علىهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الديم واما نظير

لك في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك الخ » .

حقاً أن هذه الفقرات أحسن وصية تقدم للحكام في الرفق بالمواطنين وأحسن ما يمكن أن يعبر به عن الوحدة البشرية والجامعة الإنسانية كما أن هذه الفقرات على بساطتها واختصارها أجمع وأكمل موعظة توجه إلى كلّ ذي سلطان ليشعر ان فوقه من أقوى منه وأقدر في الإنتقام والبطش فلا يغتر ولا يطغى ولا يستغل منصبه لأرواء غضبه واشباع حقده حتى ولو كان الحاكم ملك الملوك في الأرض فإن الله فوقه لا محالة وهو للظالمين بالمرصاد وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ومما جاء في هذا العهد العظيم قوله عليه السلام .

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة . . ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزين لك الشرة بالجور فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله تعالى . . » .

الأوسط أي الأحسن والأنفع والأعم في العدل يعني الأكثر شمولاً بخيره والاوسع استيعاباً بنفعه ، والأجمع أي ما يرضى الناس كلهم فإن لم يتيسر رضا الكل فالأكثرية الساحقة منهم وهم السواد الأعظم من الكسبة والعمال والفلاحين وذوي الدخل المحدود . يقول عليه السلام اجعل مصلحة هؤلاء فوق كل الأعتبارات . أما الخواص

من كبار التجار والملاكين والحاشية والمحسوبين أهل الأنانيات والمصالح الخاصة في الاحتكار والإستغلال وجني الأرباح والمنافع على حساب العشب . أما هؤلاء فهم عبء على الدولة وعقبة في طريق الإصلاح ومصدر تعب وعناء للحكام . فإن نسّقوا ووحّدوا مصالحهم مع المصلحة العامة ورضوا بالحق والعدل فبها ونعمت . وإلا فأعرض عنهم ووجه جهودك لخدمة العامة من المجتمع واطلب رضاهم ولو كان على حساب رضا الطبقة الخاصة ذوي الاطماع والمصالح الشخصية فإن سخطهم وغضبهم لا يضرك في الدنيا ولا عند الله في الآخرة إذا كان السواد الأعظم راضياً عنك ، بخلاف العكس . أي فيما إذا اشتريت رضا الخاصة بسخط العامة وارضيت الأثرياء والمتنفذين على حساب الجماهير الكادحة . فإنك حينئذ تكون قد فقدت رصيدك الشعبي الذي هو أعظم سند ودعامة للحكام وهؤلاء الخواص الذين خدمتهم لن يجدوك نفعاً ولن يخلصوك من غضبة الشعب إذا انتفض عليك . ولا تسلم من العقاب في الآخرة أيضاً لأن مصالح المترفين وأهواء الخاصة من أهل المال والجاه غالباً هي في عكس المصلحة العامة التي يريدها الله وكانوا ولا يزالون دائماً يقفون عقبة كؤداً في طريق الأنبياء والمصلحين . كما صرح بذلك القرآن الكريم . قال تعالى مخاطباً رسوله محمد (ص) : **﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انّا وجدنا آبائنا على امّة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آبائكم قالوا أن بما أرسلتم به كافرون ﴾وقال سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها أنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾** والمترفون في كلا الأيتين هم الطبقة الخاصة ذو المصالح الشخصية والامتيازات والأنانيات الذين لا يرضون بالحق ولا يقنعون بالعدل . .

ومضى الإمام (ع) قائلاً :

« ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة في الإساءة وألزم كلاً منهم ما الزم نفسه . . . ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية . . وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك واقامة ما استقام به الناس قبلك ، الخ » .

ولا شك أن رعاية أهل الكفاءات ومدارات ذوي المواهب الحسنة والملكات الخيرة والسوابق الحسنة لهو من صميم خدمة المصلحة العامة وأول شرائط السياسة الحكيمة . اذ أن رعاية هؤلاء وأعطاءهم ما يستحقون من شكر وثناء وحسن الجزاء يشجعهم على المزيد من النشاط المثمر واستخدام مواهبهم وملكاتهم في خدمة الأمة . كما أن احتقار الكسالى والمقصرين ومعاقبة الإنتهازيين والنفعيين وابعاد الظلمة والمفسدين . لهو الآخر ايضاً من أهم لوازم السياسة الحكيمة حيث ان اعطاء هؤلاء الأشرار ما يستحقون من عقاب ايجابي او سلبي قد يدفعهم إلى تغير سلوكهم أو يقلل على الأقل من تماديهم في السوء والباطل ويكون ذلك عبرة لغيرهم فلا يسلك مسلكهم .

ثم أمره (ع) أن يستفيد من الماضي للحاضر بابقاء آثاره النافعة من قوانين وتقاليد وسنن حسنة فإن للماضي حسنات لا يجوز الاعراض عنها ولا يمكن بناء الحاضر الصالح الا على اساسها . . . وان يستفيد من علم العلماء وآراء الحكماء ما يعينه على القيام بمسؤولياته على أحسن وجه . فلا يستبد بآرائه ولا يعتمد كلياً على معرفته الشخصية فإن الإنسان غير معصوم عن الخطأ إلا من عصمه الله تعالى .

وفي فصل آخر من هذا العهد المقدس .

قال الإمام عليه السلام : واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض فمنها جنود الله ومنها كتّاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عُمال الإنصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة الخ » .

ما أجمل هذا التقسيم الدقيق والوصف الرائع للتركيب الطبقي في المجتمع المتمدن مع التصريح بأن هذا التركيب ضروريّ لحياة الإنسان لأنه مدني بالطبع . أي لا يستطيع أن يوفر لنفسه بنفسه كل لوازم الحياة اللائقة به واللازمة له كإنسان فلا مناص له من أن ينظم مع أفراد من نوعه في مكان ومحيط واحد فيتعاونوا فيما بينهم على القيام بإيجاد اللوازم وقضاء الحوائج وتبادل المنافع والجهود . وكل طبقة من الطبقات التي ذكرها الإمام (ع) هي ضرورية الوجود في الحياة الإجتماعية الرغيدة مثل الجيش الذي يدفع الأعداء في الخارج وسائر قوى الأمن الساهرة على محافظة الأمن في الداخل ومثل كتّاب العامة وهم الوزراء والمستشارون الذين يتعاونون مع الرئيس في الرأي والتدبير والتخطيط . . ومثل كتّاب الخاصة وهم مدراء الاقسام ورؤساء الدوائر وسائر موظفي الدولة ثم القضاة ثم العمال والتجار وأهل الحرف والصناعات عامة . . كل هؤلاء لا يستغني عنهم كلاً أو بعضاً أي مجتمع مكتمل الرشد والرقي والتقدم . وأما الطبقة الأخيرة وهي المعبر عنهم بالسفلى وهم العاجزون عن العمل بسبب شيخوخة أو مرض أو غيرها . فهذه الطبقة وجودها طبيعي لا اختياري فطبيعة المجتمع الإنساني تفرض وجود أفراد عاجزين عن العمل غير قادرين على الكسب وفائدتهم

للمجتمع هي الاعتبار بهم والاتعاظ بعجزهم لكيلا يطغى الأغنياء بثروتهم ويغتر الاصحاء والقادرون بطاقاتهم وقدراتهم . ولهؤلاء حق اللاعالة والكفالة والضمان على المجتمع وفاء لحق الإنسانية وتقديراً لمساهمتهم في بناء المجتمع بأعمالهم في دور قدرتهم وأيام نشاطهم . . وهناك طبقات أخرى ضرورية الوجود ولا يستغني عنها المجتمع لم ينص عليها أمير المؤمنين (ع) لأنها تندرج في بعض هذه الطبقات المنصوص عليها . كالأطباء والمعلمين مثلاً لأنهم مندرجون في طبقة أهل الصناعات أو لأنهم لم يكونوا في ذلك العصر من الكثرة بمكان بحيث يشكلون طبقة بارزة في المجتمع وانما كانوا أفراداً قليلين . أو لأن الإمام (ع) لم يكن في معرض الاستيعاب لذكر جميع الطبقات وإنما أراد ذكر البعض منها حسب التركيب الإجتماعي العام . ولذا ذكرها بلفظ (من) التبعيضية فقال فمنها جنود الله ومنها الخ .

ثم شرح عليه السلام وجه الإرتباط والعلاقة بين كل طبقة وأخرى وبالتالي أثر كل طبقة وفائدتها في المجتمع ثم انتقل سلام الله عليه في الفصل الآتي إلى بيان الصفات الضرورية في أفراد الجند وقادته وسائر الموظفين من وزراء ومدراء وقضاة وغيرهم . وهي صفات الإيمان وحسن السمعة وشرف النسب وبالإضافة إلى توفر هذه الصفات الحسنة فيهم أمره أن يراقب أعمالهم ويشرف بنفسه على سلوكهم بعد أن يسد احتياجاتهم المعاشية بالشكل الوافر اللائق ليبعدهم عن الرشوة والخيانة ولا يترك لهم عذراً في ارتكاب الجريمة والمخالفة وإذا صدر منهم شيء من هذا مع تلك الاحتياطات فحينئذ يجب معاقبتهم دون هوادة ورحمة ليكونوا عبرة للآخرين . . . إلى أن بلغ عليه السلام إلى قوله :

« وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحهم صلاحاً

لمن سواهم ولإصلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراجَ بغير عمارةٍ أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا . . الخ » .

الخراج هي الضريبة المالية التي فرضها الإسلام على الأراضي الزراعية . وأهل الخراج هم طبعاً المزارعون والفلاحون . وهذه الضريبة هي غيرالزكاة المفروضة على الغلّات الأربع ، القمح ، والشعير ، وزبيب العنب والتمر . ومن هنا نعرف أن الواردات المالية التي تصل إلى بيت مال المسلمين من ناحية الأراضي الزراعية سواء بإسم الخراج او بإسم الزكاة هي واردات مهمة تشكل نصف أو أكثر من نصف مجموع الواردات . لذا يعني الإمام علي (ع) بالخراج وأهله والأرض عناية خاصة فيأمر بتفقد أمرهم وإصلاح حالهم وعمارة أراضيهم بكل ما تحتاجه الأرض من ماء وآله وغيرها لكيلا تبور وتخرب ثم ليزداد إنتاجها فيزداد محصول الدولة منها . بناءً على المبدأ المعروف والقائل « خزانة الدولة جيوب مواطنيها » فكلما كانت جيوب المواطنين مليئة بالمال أكثر كانت الدولة منتعشة أكثر اما إذ كانت الجيوب فارغة فأخذ الضرائب من لقمة العيش والعرق والدماء تدمير للدولة وقتل للشعب حتماً كما فعله الأمويون في اكثر فترات دولتهم المشؤومة .

ذكر المؤرخون أن والي مصر قدم على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وشكى إليه سوء الحالة الإقتصادية وتردي الوضع المالي لدى أهل مصر وطلب من الخليفة أن يأذن له بالتخفيف عنهم هذه السنة باسقاط بعض الضرائب أو جزء من الخراج . فقال عبد الملك : « ويلك احلب اللبن حتى ينقطع ثم احلب الدم حتى

ينقطع » وهذا شاهد بسيط على البون الشاسع والفرق الكبير بين سياسة الإسلام التي انتهجها محمد (ص) وأهل بيته (ع) وبين السياسة (المكياولية) الشيطانية التي سار عليها الملوك والخلفاء الغاصبون من خصوم علي وأبناءه عليهم السلام .

وان اردت أيها القاريء الكريم مزيدا من الإطلاع على مضامين هذا العهد العظيم والدستور الإنساني الكامل فارجع إلى شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي أو ابن ميثم البحراني أوالعلامة الخوئي أو الشيخ محمد جواد مغنية أو غيرها من شروح النهج العلوي الخالد عامة أو شروح هذا العهد منه خاصة والحاصل من كل ما تقدم هو أن للسياسة وجهين وجه جميل وضاء يشرق بأنوار الخير والحق والعدل على العالمين . ووجهٌ مشوّه مشوم ينفث بالشر والظلم والجور في جسم المجتمع . وان الغالبية في العالم قديماً وحديثاً هي للوجه الثاني مع الأسف الشديد . اما الوجه الأول فإنه لم يخرج الى عالم العمل والتطبيق في حياة الإنسان إلا لفترات قليلة وقصيرة جداً . والسبب الأول والأخير لذلك هو جهل الناس وضعف وعيهم الإجتماعي ونموهم الأخلاقي . دما ورد في الحديث الشريف : « كما تكونون يولى عليكم » والا فمستحيل عادة على مجتمع ناضج روحياً وسليم عقائدياً وواعٍ فكرياً . ان يفشل فيه مثل علي بن أبي طالب (ع) مثلاً : وهو رمز الفضائل وتمثال العدل ومدار الحق . ثم يسيطر عليه ويتحكم فيه مثل معاوية بن أبي سفيان رمز الرذائل وبؤرة الشر وجرثومة الفساد .

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليّل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

وفي ختام هذا الفصل لا بد من الإنتباه إلى أصواتٍ نشاز ترتفع بين الحين والآخر هنا وهناك مطالبةٌ بفصل الدّين عن السياسة وابعاد

علماء الدين عن التدخل في السياسة وحصرهم في المساجد والمحاريب فقط . وهذه الأصوات مصدرها الأستعمار الكافر الذي يريد السيادة على المسلمين وردُنا على هذه الدعوات المشبوهة بإيجاز واختصار ، هو :

ان الفصل بين الإسلام وعلماءه وبين السياسة العامة انما هو تماماً كالفصل بين الشيء وطبعه وبين الأمر وهدفه ومهمته .

فالدين الإسلامي كله سياسة وانما جاء للسياسة العالمية وادارة شؤون الحياة الإنسانية .

وعلماء الإسلام انما وجدوا لممارسة هذه السياسة وأقامة المجتمع العالمي المتوازن بقيادتهم وادارتهم وتوجيهاتهم في اطار هذه السياسة فهم السياسيون الحقيقيون وهم المسؤولون عن سياسة العالم مسؤولية ذاتية بحكم العقل والشرع وهم مراجع الإنسانية في حياتها الخاصة والعامة . اما اصالةً كما في شخص النبي (ص) واما نيابة كما في اشخاص الخلفاء الشرعيين الأثني عشر (ع) ثم في اشخاص العلماء المجتهدين من بعدهم في كل زمان ومكان .

فإذا فصلنا الإسلام عن السياسة . فقد فصلناه عن جوهره وحرفّناه عن هدفه وافرغناه من لبابه ومعناه ولم يبقى لنا منه بعد ذلك إلا الهوامش والأمور الثانوية التي لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وكذلك اذا ابعدنا علماء الإسلام ورجاله عن السياسة وشؤونها وممارستها . فقد عطلناهم عن اهم واجباتهم ومنعناهم عن ممارسة اولى مسؤولياتهم ولم يبقى لنا منهم سوى طاقات مجمدة وقوى معطلة وثروات مطمورة مشلولة ويكون مثل المجتمع امامهم ومعهم حينئذٍ كما قال الشاعر :

العيس في البيداء يقتلها الضحا والماء فوق ظهورها محمول

الفَصل الثامن

الدِّينُ والحِزبيَّة

إن عصرنا الحاضر تميّز في جملة ما تميّز به بظاهره تعدد الأحزاب العقائدية والإقتصادية والسياسية وان الكثيرين من شبابنا أصبحوا منتمين إلى هذه الأحزاب وهم ينتحلون الإسلام ويدعون أن الدين لا ينافي الإنتماء الى الأحزاب هذه . . .

فما هو يا ترى مدى صحة هذا الزعم وصدق هذا الإدعاء .

فأقول : قال الله تعالى في كتابه المجيد : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام**﴾ ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ . فصريح هذه الآية الكريمة هو ان كل دين غير دين الإسلام باطل ومنسوخ وغير مقبول عند الله في الدنيا والمنتمي إلى ذلك الغير معاقب وخاسر في الآخرة . . .

والسؤال هنا هو : هل الحزب دين ؟ الجواب : نعم لأن الدين لغة ما يلتزم به الإنسان في حياته من عقيدة أو نظام . لذا نجد القرآن يخاطب الكفرة والمشركين أهل الجاهلية عن لسان محمد (ص) فيقول لهم « لكم دينكم ولي دين » .

فكل حزب هو دين لأنه يرتكز على فكرة وفلسفة معينة عن الكون والحياة أو يلتزم بطريقة معينة لنظام الحياة ومعالجة مشاكل الإنسان .

فإذا كانت تلك الفكرة والفلسفة والطريقة تتوافق مع الفكرة والفلسفة الإسلامية ونظامها لا تصطدم ولا تتعارض مع أحكام القرآن ونظام الإسلام فحينئذ لا مانع من الإنتماء إلى هكذا حزب ان وجد

لأنه بهذا الوصف تكتل اسلامي وليس حزباً .

وأما إذا عاكس الإسلام في الفكرة والعقيدة وخالفه في النظام والأسلوب سواء كانت المعاكسة والمخالفة بينه وبين الإسلام كلية شاملة أو جزئية محدودة في بعض النقاط . فالإسلام يحكم عليه بالبطلان وعدم شرعية الإنتماء اليه ويحرم العمل به بل ويحرم تأييده ودعمه مادياً أو معنوياً .

وها هنا لك أن تقول لماذا ؟ . . فأقول لأن الإسلام دين ونظام كامل وهو أكمل وأشمل وأنفع من كافة النظم والأديان والفلسفات الأخرى في العالم . فالذي يرفض الإسلام عقيدة أو نظاماً . ويسير وراء غيره من العقائد والنظم ليس عنده مبرر عقلائي ولا يملك عذراً معقولاً ومقبولاً ابداً وإنما هو عمل ناشىء اما عن جهل بالإسلام أو عن نوايا سيئة لا يستطيع باسم الإسلام تحقيقها . وغالباً ما يكون المنشأ هو الجهل حيث أن الأكثرية من شبابنا اليوم يجهلون حقيقة دين الإسلام وشموله لكل مرافق الحياة الفردية والجماعية وصلاحه لكل زمان ومكان . فهؤلاء يظنون أن الدين مجرد صلة قلبية وطقوس عبادية من صلاة وصوم ليس إلا ، اما تنظيم الحياة وإدارة الدولة وسياسة الأمة وإقتصاد المعيشة والإستعداد العسكري والدفاع الوطني و و الخ ، أما هذه فلا يعرف الإسلام عنها شيئاً وليست من اختصاصه لذلك فهم يتوجهون إلى أقطاب الشرق والغرب وفلاسفة الإلحاد ومشرعي القوانين في العالم الغربي أو الشرقي ليأخذون منهم ما يحتاجونه من تلك الأمور . مثلهم مثل رجل في بيته كنز عظيم من المال لا يعلم به فيخرج ويستجدي قوته من الآخرين . . . أو كما قال هذا الأديب :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

ليت هذا الغافل أو المغفل علم أن الإسلام نظام الحياة بكل ما فيها ولها من متطلبات واحتياجات في الحاضر والمستقبل لم يهمل أي زاوية في حياة الإنسان مهما كانت بسيطة وشخصية أو مهمه وعامة كما في الحديث الشريف: « ان لله في كل واقعةٍ حكمٌ » إن الإسلام الذي ينظم نوم الإنسان وأكله وشربه ويعلمه كيف يجلس ويمشي ويتكلم وغير ذلك من الأمور الطبيعية الفردية فكيف لا ينظم شؤونه الإجتماعية ولا يعلمه كيف يقيم أركان الدولة ودعائم الإجتماع ولقد اجتاز الإسلام حدود تنظيم الحياة الدنيا بأكملها إلى تنظيم شؤون الإنسان في الحياة الأخرى التي لا انقضاء لها ولا نهاية فعرفه كيف يقرر مصيره فيها وكيف يبني مستقبله السعيد فيها وكيف يحظى بالنصيب الأوفر منها . . . وهذه أعظم ميزة للإسلام على المبادىء والأحزاب الأرضية كلها . هذه الأحزاب والمبادىء التي لا تؤمن بالله ولا بالمعاد إليه ولا تحرم ما حرمه الله ولا تحكم بما أنزل الله . ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . . ﴾ صدق الله العظيم .

والخلاصة هي ان الانتماء إلى الأحزاب المخالفة للإسلام في العقيدة والنظام أو في النظام فقط إنّما هو انتماء لا مبرر له اصلا ولا يتفق مع مصلحة الفرد ولا مصلحة المجتمع لأنه كما ذكرنا لم يترك الإسلام فراغاً في حياة الإنسان لكي نملأه بهذه الأفكار والقوانين الأرضية والتنظيمات الحزبية الضيقة. وبالإضافة الى ذلك فقد ثبت فشلها في العالم كله وعجزها عن حل مشاكل المجتمع بل بالعكس خلقت مشاكل كثيرة في أي قطر دخلته وفي أي مجتمع احتلته فنشرت الفقر بدل الغنى والفرقة بدل الوحدة والخوف بدل الأمن والظلم بدل العدل والعبودية بدل الحرية . . . وهكذا . هذا ما نراه بأم أعيننا ونعيشه في أيامنا ونسمع وقع ضرباته أينما اتجهنا . وصدق

الله سبحانه حيث قال : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً** ﴾ ﴿ **ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة صنكا** . . ﴾ الخ .

أيها القارىء الكريم ان الأمة الإسلامية حزب مكتمل العناصر والشروط تام الأركان والمقومات حيُّ المبادىء والأفكار والأحكام دائماً وأبداً منبثق من صميم العقل والمنطق مواكب للعلم ومساير للتطور والتقدم واسع الأفق بعيد الحدود كما تقدم من ان الله في كل واقعة حكم . . . أي ما من شاردة وواردة في الحياة البشرية إلا ولها حكم من الأحكام الخمسة الإسلاميه . . . وهي الوجوب ـ الحرمة ـ الإستحباب ـ الكراهة ـ الإباحة المطلقة . . وهو سهل العمل خفيف التكاليف خالي من التعقيد : أجل سهل العمل به لأنه يراعي استطاعة الإنسان فيقول النبي (ص) : « إذا أمرتكم بشيء فأتوا بما استطعتم منه » . وقال الله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقال الرسول (ص) : « جئتكم بالشريعة السمحة السهلة » فهو حزب لا عسر فيه ولا احراج ولا ضرر فيه ولا ضرار له قادة مخلصون وزعماء مثاليون ابتدائ بمحمد (ص) وأهل بيته الطاهرين وانتهاء الى العلماء المجتهدين المعاصرين . ولهذا الحزب دستوره الدائم ونظامه الواسع المنبثق من كتاب الله وسنة رسوله ومصلحة الإنسان في كل زمان ومكان والمعبر عنه بحبل الله وأمر سبحانه بالتمسك به وحده فقال : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ وهذا الحزب هو حزب الله الوحيد الذي قال عنه تعالى : ﴿ **ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ وهو الإسلام وحده وما عداه فهو حزب الشيطان . ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ . أجل انه حزب متكامل جامع للشروط ولا ينقصه شيء في ذاته . نعم إنه بحاجة إلى تكاتف أعضاءه ووحدة أتباعه وتمسكهم بأحكامه وأهدافه

وسيرهم تحت لوائه ووراء قيادة موحدة حكيمة وإسلامية بحتة لا شرقية ولا غربية لا يسارية ولا يمينية . وبهذا فقط يظهر الحق ،يزهق الباطل ويعم السلام والرخاء . . . ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾

لقد مضى وقت طويل على هذا الحزب منذ أن بدأت عوامل التشكيك والتخدير والتفريق والتمزيق تعمل في نفوس أهله وصفوف أتباعه عملاً مركزاً ومتواصلاً بمختلف الوسائل والأساليب حتى أصبح المسلمون اليوم يشعرون بالنقص، في قدراتهم والفشل في اسلامهم والرجعية والجمود في نظامهم . وانهم لا بقاء لهم إلا بالإعتماد على غيرهم من الأحزاب والأنظمة ولا يستطيعون العيش إلا إذا صاروا حجراً في بناء غيرهم وزاوية من كيان الآخرين . ومن أخطر تلك الوسائل التي استخدمت لأجهاض الروح الإسلامية والقضاء على آخر خيط من الرابطة والعلاقة بين المسلمين واسلامهم ومن الجامعة الإسلامية التي تجمعهم . من أخطرها جميعاً هي الحزبية والأحزاب التي اندست منذ حوالي ثلاثين عاماً بين المسلمين وتسربت إلى البلاد العربية والإسلامية عامة ففرقت بين الأخ وأخيه والوالد وأولاده وبين المرء وزوجة . . وضربت بعضهم ببعض والقت بأسهم بينهم خدمة لمصالح الأجنبي . ولعلي لا أذيع سراً إذا قلت أن أصل هذه الفكرة أي فكرة استخدام الحزبية لضرب الوحدة الإسلامية والعربية هي من الصهاينة وضعوها في جملة مخططهم الكبير للإستيلاء على العالم حسب ما هو مفصل في كتاب (بروتوكولات علماء صهيون) المعروف .

ومن الجدير بالذكر أن الدين في الوقت الذي يرفض غيره من المبادىء والأفكار والفلسفات ويحكم على الأحزاب الخارجة عن خطة بالبطلان . . في نفس الوقت لا يمنع من الأطلاع والتعرف على

تلك المبادىء ويفسح المجال أمام الإنسان ليستمع إلى أقوالهم وآرائهم فيقارنها بأقوال الإسلام وآرائه ليتضح له الفرق بينهما أكثر ويعرف الإسلام بشكل أوضح . قال تعالى : ﴿ **فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون** أحسنه .. ﴾ الخ .

هذا حاصل موقف الإسلام من الحزبية والأحزاب العقائدية منها.والإقتصادية والسياسية وأما عن موقف الإسلام من الطائفية . أي تعدد المذاهب داخل أطار الإسلام . فهو الرفض أيضاً .

فالإسلام يرفض تعدد المذاهب لسبب واضح بسيط وهو أن الإسلام مذهب واحد بكل ما فيه من عقائد وأحكام ومصدرها الأساسي كتاب الله وسنة رسوله (ص) ولا شك أنهما لم يختلفا فيما أصدرا من أحكام فمن أين جاء هذا الإختلاف بين المذاهب أجل أنه جاء من قبل المتطفلين على تفسير القرآن وفهم سنة الرسول الذين فسروا القرآن بآرائهم ونقلوا سنة الرسول بغير علم وتمحيص .

وقد تنبأ الرسول الكريم (ص) عن هذا الاختلاف بين أمته من بعده فقال في الحديث المشهور : ستختلف أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة . فرقة ناجية والباقون في النار . وحذرهم منه وأعطاهم الوسائل الكافية للنجاة منه وعدم الوقوع فيه وذلك بأن نصب لهم مراجع يرجعون اليهم عند الإختلاف وهؤلاء المراجع هم علي بن أبي طالب وأبنائه الأئمة الأحد عشر من بعده عليهم السلام . فأعلن (ص) أكثر من مرة وعلى الملأ العام من أصحابه قائلاً : اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمكستم بهما لن تضلوا بعدي أبدا . مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق .

وقال عن علي (ع) خاصة : علي مع الحق والحق مع علي .

علي مع القرآن . أنا مدينة العلم وعليٌ بابها . . علي أقضاكم من بعدي الخ . وإلى العشرات أمثالها من أقواله (ص) التي عين فيها للأمة مراجعها في الشك والحيرة والإختلاف . ولو أن المسلمين أطاعوا النبي (ص) في تلك الوصايا والتزموا بتلك النصوص لكانوا جميعاً وما زالوا أمة واحدة موحدة لا تفرقها طائفية ولا تقسمها مذاهب ولكانت كلمتهم هي العليا كما أراد الله لها . ولكن الكثير منهم أعرض عن أهل بيت الرسول وابتدعوا لأنفسهم قادة ومراجع فصاروا شيعاً وطوائف . ولم يثبت على وصايا الرسول ونصوصه في أهل بيته الا فئة منهم وما زالوا مع اهل البيت (ع) وعلى خطهم وطريقتهم من الإسلام عقيدة وعملاً . وهؤلاء هم الشيعة الجعفرية ويشكلون اليوم ربع مجموع المسلمين تقريباً في شتى أنحاء العالم .

وخلاصة القول : هو أن الإسلام واحد في عقائده وأحكامه فلا يقبل التعدد . وهو واحد في شموله واستيعابه لكل متطلبات الحياة في كل زمان ومكان فلا يقبل الدخيل ولا يعترف بالغير ولا يجتمع مع سواه من عقائد أجنبية ونظم مستوردة . وصدق الله العظيم حيث يقول: **﴿ان الدين عند الله الإسلام﴾﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** :

ولا بد لي هنا ان أشير إلى أهم النقاط التي تميز الإسلام وتفوّقه على غيره من عقائد ونظم في العالم وتجعله أصلح دين وأنفع نظام للإنسان في كل زمان ومكان بحيث لا يمكن عادة أن يقدِّم الفكر البشري والعقل الإنساني ما هو مثله في الحسن والصلاح فضلا عن الأحسن والأصلح . لسبب رئيسي واحد وهو ان الإسلام من صنع الله تعالى ووضعه والله تعالى أعلم بمصلحة الإسان وحيره من الإنسان نفسه .

ويمكن تلخيص تلك النقاط المفضلة في ست . . وهي كما يلي :

أولاً : ان الإسلام متكامل الأطراف واسع الحدود فيه كل ما يحتاجه الناس من عقائد واخلاق وعلاقات اجتماعية ونظام عام يشمل السياسة والإقتصاد والتجارة والصناعة والتربية والإدارة الداخلية والتعليم والزراعة والصحة والحرب والسلام وغيرها .

بالإضافة إلى تنظيمه العائلي كل ذلك في اطار مصلحة الفرد والجماعة معاً وعلى طريق وسط لا افراط فيه ولا تفريط . ثم تتسع حدوده لتشمل حياة الإنسان في عالم الخلود والدار الآخرة فيضمن له فيها مستقبلاً سعيداً وعيشاً رغيداً ويفتح له الطريق الى جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين

ثانياً : أنه دين معقول ومقبول لدى العقل الإنساني ليس فيه خرافة ولا مستحيل ولا يصطدم مع الأحكام والضرورات العقلية في أي من عقائده أو أحكامه أو أوامره أو نواهيه وهو أيضاً يحترم العقل وأحكامه ويعتبره مقياساً لمعرفة الحق ومصدراً أساسياً لإستنباط أحكامه جنباً إلى جنب مع الكتاب والسنة .

ثالثاً : انه يواكب العلم ويقدسه ويساير قراراته ونتائجه ويبعث على طلبه والإستزادة منه بل ويفرض طلبه وتحصيله فرضاً عيناً على كل مسلم ومسلمة في حدود قدرته واستطاعته وأخيراً فالعلم من عوامل التفاضل الأساسية في عرف الإسلام فقال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ .

رابعاً : انه يدعو إلى العمل ويشجع عليه ويؤكد ضرورته في تحقيق سعادة الإنسان دنياً وآخرة . فال تعالى . ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه . .** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **ليس للإنسان الا ما**

سعى ﴾ . . وقال : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ . وقال الرسول (ص) ان الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال . . وقال (ص) : « ملعون من ألقى كله على الناس . . » ، ونظر عليه وعلى آله السلام إلى عامل قد مجلت كفاه من العمل فقال أنها كف يحبها الله ورسوله .

.واعتبر الإسلام العمل المثمر أفضل العبادات المقربة إلى الله تعالى بعد الفرائض . فقال النبي (ص) : « من بات متعباً من عمله فقد بات مغفوراً له » . وقال (ص) : « للذين كانوا ينفقون على أخ لهم قد ترك العمل واشتغل بالصلاة والصيام » . قال « كلكم خير منه عند الله » . وقال (ص) : « الكاد لعياله كالمجاهد في سبيل الله » . وأخيراً فالإسلام دين العمل والسعي وشعاره قول الله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الخ .

خامساً : انه دين الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية . . بمعنى أن الإسلام لا يكبت الغرائز ولا يتنكر للشهوات ولا يستقذر العواطف التي خلقها الله سبحانه في الإنسان بل يحترمها جميعاً وانما هو يحددها في اطار مصلحة الإنسان ونفعه ويمنع من اشباعها الى حد الأفراط والأندفاع ورائها بشكل فوضوي فغريزة الأكل والشرب والنوم والجنس وشهوة المال والجاه وغيرها هي من الأمور الضرورية لحياة الإنسان ومؤثرة في تقدمه وسعادته إذا استعملت حسب تعاليم الإسلام وضمن حدوده ونظامه . وكل شيء نافع في الحياة إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده . وخير الأمور أوسطها .

فلا كبت ولا اطلاق في الإسلام بالنسبة لفطرة الإنسان وطبائعه بل تنظيم وتحديد لها بما يكسب الإنسان فوائدها ويبعد عنه شرورها . ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ ان الله

سبحانه لم يخلق هذه الغرائز والشهوات في الإنسان عبثاً بل هي من حيث الأصل ضرورية لحياته الإنسانية إذا استخدمت بتوسط واعتدال فالفضيلة ومكارم الأخلاق تكمن في الحد الأوسط من شهوات الإنسان فالكرم مثلاً هو التوسط بين رذيلتي الإمساك والتبذير الناشئتين من طرفي الأفراط والتفريط في علاقة الإنسان بالمال. والشجاعة هي الحد الوسط بين رذيلتي الجبن والتهور الناشئتين من تطرف علاقة الإنسان بالحياة والعفة هي الإعتدال بين الرهبانية أي كبت الغريزة الجنسية كلياً وبين الفجور أي الاسترسال وراء هذه الغريزة بلا قيد وشرط. وهكذا كل الفضائل الإنسانية الأخرى فإنها لا تتحقق إلا بالسيطرة على العواطف وكبح جماح الشهوات. وصدق الله سبحانه حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** .. ﴾ الخ.

سادساً: وأخيراً ..

أنه دين اليسر وشريعة سهلة العمل والتطبيق تماماً كما صرح به الحديث الشريف عن النبي (ص) لقد جئتكم بالشريعة السهلة السمحاء .. أجل أن كل فرض أو حكم في الإسلام إذا استلزم ادائه وتطبيقه عسراً أو حرجاً على الإنسان فإنه يخفف وربما يسقط عنه في بعض الأحيان. والتأخذ الصيام مثلا لذلك فإنه يسقط عن المسافر والمريض وعن الحامل المقرب وعن المرضعة القليلة اللبن وعن الشيخ الكبير والعجوز الضعيفة .. وغيرهم لأن الصيام يعسر عليهم عادة. وكذلك الصلاة فإنها تخفف عن المسافر والمريض إلى حد يسهل عليهما القيام بها. وهكذا كل التكاليف والأحكام. قال تعالى في القرآن المجيد: ﴿ **ما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ .. وقال تعالى: ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ صدق الله العظيم ..

والخلاصة هي :

ان هذه النقاط الست هي أبرز المميزات وأظهر المرجحات للإسلام على كل ما عداه من أديان سماوية أو نظم أرضية في العالم وفضائل الإسلام على غيره كثيرة لا يسع المقام استقصائها جميعاً .

وهذه المميزات والفضائل قد يوجد بعضها في بعض الأديان أو النظم ولكن لم تجتمع كلها في واحد منها كما اجتمعت في الإسلام .

والخلاصة : هي أننا لو درسنا هذا الدين عن مصادره الكتاب والسنة وسيرة أهل البيت عليهم السلام دراسة موضوعية ومجردة عن التعصب .

يتضح لنا بكل جلاء أن الإسلام رسالة السماء وشريعة الله تعالى أنزلها إلى الأرض كدستور دائم للبشر إلى أبد الدهر ليعيشوا في ظله بسعادة وأمن وسلام شريعة بعثها الله إلى عباده ليحقق لهم بواسطتها المبادىء التالية .

١ ـ توحيد الناس جميعاً على عبادة الله وحده والأخوة لإنسانية والإحترام المتبادل والتعاون على البر والتقوى . قال سبحانه مخاطباً رسوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ . . . وقال تعالى ايضاً : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ . . . الخ .

٢ ـ انهاء دور الخرافات العقائدية والكهانة والعرافة والتنجيم وكافة الأعمال التي تقوم على الأوهام والظنون والدجل . قال سبحانه : ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ ﴿ **ان الظن لا يغني عن الحق شيئاً** ﴾ ﴿ **وان هم الا يخرصون** ﴾ ﴿ **قل هاتوا بـ...انكم ان كنتم صادقين** . . ﴾ الخ .

٣ ـ القضاء على التمايز والتفاضل العنصري والقومي وعلى كافة أنواع الأمتيازات القائمة على اعتبارات مادية وطبيعية مثل اللون والجنس والأقليم والقبيلة ونحوها . ثم تركيز التمايز والتفاضل على أساس العمل الصالح المتمثل في الإيمان بالله تعالى وخدمة الناس فقط . قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . . وقال الرسول (ص) : « خير الناس من نفع الناس . . » . الخ .

٤ ـ تطهير المجتمع البشري من الإنقسام الطبقي الفاحش والتفاوت الإقتصادي الكبير . ثم القضاء كلياً على كل سيطرة وسيادة ظالمة لا تقوم على أسس الحق والعدل والمصلحة العامة . قال سبحانه وتعالى عن الموضوع الأول : ﴿ **وفي أموالكم حق معلوم للسائل والمحروم** . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ **كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم** . . ﴾ وقال تعالى بالنسبة الى موضوع الحاكمية والسيادة : ﴿ **ان الحكم إلا لله . . لا اكراه في الدين** ﴾ . وغيرها من المبادىء الإنسانية والأهداف الخيرة والأوضاع الإجتماعية العادلة . ولقد حقق رسول الله (ص) خلال حياته الرسالية كثيراً منها أو كلها في حدود المجتمع الإسلامي الصغير الذي أقامه في مكة المكرمة والمدينة المنورة ونواحيهما منذ هجرته الى حين وفاته . وقد كان قد وضع الخطط الكفيلة بنشرها وتوسيعها حيثما اتسعت دائرة اسلام وانتشرت رسالته في أنحاء العالم كله .

تلك الخطط الحكيمة والتي كان أهمها ان جعل السلطة من بعده وقيادة الأمة بعد وفاته بيد أقرب الناس اليه علماً وعملاً وأشبههم به خلقاً وفضلاً وهو ربيبه وناصره وابن عمه وأول المصدقين به والمصلين معه علي بن أبي طالب (ع) على أن تكون القيادة من بعده للأمثل فالأمثل من أهل البيت عليه السلام الذين أذهب الله

عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . والذين عرّفهم النبي (ص) لأمته بأسماءهم وعددهم في أحاديث صحيحة ومتواترة . ولكن . . ما الذي حدث بعد وفاة الرسول الأكرم (ص) ؟ .

نعم ان الذي حدث هو ان زمرة من الصحابة قاموا بانقلاب مفاجيء بعد وفاة الرسول مباشرة وقبل أن يدفن في قبره الشريف .

فاغتصبوا السلطة من خليفته الشرعي الإمام علي (ع) ثم راحوا يعملون وفق مصالحهم الخاصة وحسبما تمليه عليهم آرائهم . وأفكارهم البعيدة عن روح اسلام وجوهره والمغايرة لأهداف الإسلام العليا . فانطلقوا يوسعون سلطانهم السياسي والإقليمي وينتشرون في الأرض كغزاة وفاتحين ناسين أو متناسين مسؤولياتهم عن نشر الإسلام في النفوس وتركيز عقائده في القلوب وتوسيع أهدافه الإنسانية ونشر مبادئه الروحية والخلقية العالية في تلك الأقطار . فكان من نتائج أعمالهم أن تقلصت الروح الإسلامية في النفوس وانحسرت روحانيته وذبلت نبتته الإنسانية وجفت ينابيعه المتدفقة بالسلم والسلام والأخوة والمساواة والحب والإيثار والتعاون والاحترام للحقوق بين كافة بني الإنسان .

وبقي كأقوال بلا أعمال وشعارات بلا تطبيق وكلمات تتردد على الأفواه وتخالفها الأفعال وانعكست الحركة الإسلامية على شاشة الرأي العام العالمي كحركة سياسية توسعية شعارها العنصرية والديكتاتورية ومنطقها السيف ، ككل الحركات السياسية الأخرى والحكومات السابقة واللاحقة في العالم تماماً وبدون فارق جوهري قط .

غير انه ، والحق يقال . . بقي بصيص من نور الإسلام وشعاع من جوهره الأصيل وحقيقته الصافية يجسِّد أهدافه للباحثين ويوضح

واقعه وغاياته ومبادئه العطرة الخيرة لطالبي المعرفة في كل عصر ومكان . وذلك كله من خلال جهود علي عليه السلام وأبناء المعصومين وسيرتهم الصحيحة وحياتهم المطابقة لحياة وسيرة جدهم الرسول (ص) ولولاهم لزال كل أثر من الإسلام الحقيقي وكل العلامات التي تدل على الإسلام الواقعي . فجزاهم الله عن الإسلام ورسوله وأهله أفضل جزاء المحسنين على ما بذلوا من جهود وقدموا من تضحيات على مر العصور . فصانوا بذلك هيكل الإسلام عن الزوال والإنهيار ولو على الصعيد الفكري والنظري على الأقل . . فلولا ذلك الإنقلاب الذي حدث على علي (ع) بعد وفاة الرسول (ص) لتحقق قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ على أتم وجه وأكمله . . ولسوف يتحقق ذلك حتماً بإذنه تعالى على يد المهدي (ع) .

وهنا في ختام هذا البحث لا بدّ لي من الإجابة باختصار على زعم القائلين بان الإسلام قد مضى زمانه وذهب أوانه وانقضى عصره ووقته واصبح نظاماً بالياً قديماً لا يصلح لعصرنا الحاضر عصر الذرة وغزو الفضاء .

فاقول لأصحاب هذا الزعم : كلا . . . لأن النظام الذي يبلى وينسخ ويبطل العمل به انما هو ذلك النظام الجامد المتحجر المتقيد بالنصوص الحرفية والملتزم بحرفية النصوص ومعاني الألفاظ فلا يبيح تجاوزها والتخطي عنها بأي حال من الأحوال . ذلك النظام الذي وضع بلحاظ فترة خاصة او مرحلة معينة من حياة الإنسان .

اما نظام الإسلام فليس كذلك بل هو نظام مرن يتكيف حسب مصالح الناس وخيرهم وسعادتهم في كل وقت وذلك بسبب انفتاح باب الإجتهاد فيه امام العلماء دائماً في كل حادث وجديد . والإجتهاد في

الإسلام يقوم على احكام العقل ومقررات العلم وعرف العقلاء ويدور مدار المصلحة العامة بعيداً عن العسر والاحراج داخل أطار عام من القرآن وسنة الرسول (ص) الثابتة الصحيحة ان باب الإجتهاد مفتوح أمام علماء الإسلام دائماً وأبداً ليكيفوا حياة الأمة حسب مصالحها العـامة وحياة المجتمع حسب ظروفه واحواله وفي نطاق انسانيته وكرامته بدون عسر ولا حرج ولا ضرر ولا ضرار وهذا كله ممكن وميّسر بدلاله آيات القرآن ونصوص السنة الكريمة فقد قال تعالى : ﴿ **ولا يكلف نفساً الا وسعها** ﴾ . . . وقال الرسول الأكرم يسرّوا ولا تعسّروا وقربّوا ولا تنفروا فإن الله بعثني رحمة للعالمين . .

والخلاصة هي : ان نظام الإسلام لا يقف بالإنسان عند حرفية النصوص وما تحت الألفاظ . بل يوسع مفاهيمها ومدلولاتها الى ما تشاءه وتفرطه سعادة الناس ومصلحتهم العليا في كل زمان ومكان . فهو النظام الوحيد في العالم المنفتح على كل حادث وجديد فيقبل منه ما كان نافعاً ومفيداً او على الأقل ما كان نفعه اكثر من ضـرره . ويرفض منه ما كان ضاراً ومسيئاً او ما كان ضرره اكثر من فائدته ونفعه . وعلى هذه القاعدة أباح اشياءً وفرضها او نهى عن اشياء وحرمها . مما وجد في عصرنا هذا ولم تكن موجودة في زمن نزول الوحي فأباح استخدام كافة وسائط النقل الحديثة سواءً الجوية والبرية والبحرية . وجميع وسائل الإعلام الحديثة سواء السلكية منها واللاسلكية ، مثلاً . . . كما حرم كل أسلحة الأبادة الحديثة الذرية منها والهيدروجينية وغيرها . مثلاً . . . والأمثلة لذلك كثيرة في كل نواحي الحياة فالإجتهاد من اهله وبشروطه في أطار القواعد الإسلامية العامة يجعل من الإسلام نظاماً عالمياً دائماً يصلح لكل زمان ومكان . ولعل أخصر وصف لنظام الإسلام هو ما جاء في قوله تعالى .

﴿ يحـــل لهم الـطيبــات ويحـرم عليهم الخبــائث ويضــع عنهم أصـــرهم والأغـــلال التي كــانت عليهم ﴾ . . . صـــدق الله العــظيم

فالإسلام هو دين يُحلُّ كلّما هو طيّب . أي نـافع ومفيـدة ، ويحرّم كلّما هو خبيث ، اي ضارٌ ومسيء . .

الفَصْل التّاسع

عُرُوبَة مُحَمّد وَعَربِيّة القرآن

قد يتسائل البعض عن الأسباب والحِكَم والمصالح في ظهور الإسلام على أرض العرب وعلي يد رجل عربي وبكتاب عربي ؟ .

ويتوهم البعض من هذه الظاهرة أن الإسلام دين يخص العرب وحدهم .

فأقول . . كلا . ليس الإسلام موجهاً للعرب فحسب بل إلى كافة البشر في كل مكان وكل زمان منذ انبثاقه وحتى نهاية العالم .

وأما ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وفي تلك المنطقة منها خاصة وعلى يد رجل منهم وبكتاب ينطق بلغتهم . . فإن لذلك كله أسباب ومصالح تخدم مصلحة الرسالة الإسلامية والناس أجمعين . واليك بيان بعض تلك الأسباب والمصالح .

أولاً : إن ذلك المجتمع الذي ظهر فيه الإسلام وبعث فيه محمد (ص) كان يعاني من فراغ فكري هائل لا يملك قاعدة عقائدية ثابتة ولا يستند إلى فكرة منطقية ومعينة . بل كان ما عندهم هو مجرد أوهام وأساطير وتقاليد عمياء لا يقرها عقل ولا يرتضيها وجدان لذا فلقد كان ذلك المجتمع أصلح وأنسب مكان لقبول الفكرة الإسلامية المركزة وعقائده الواضحة . . . بخلاف المجتمعات الأخرى آنذاك كالروم والفرس وغيرهم الذين كانوا مقتنعين بعقائدهم فلا يشعرون بذلك الفراغ الفكري الملحّ ولا يشعرون بحاجة إلى اصلاح أو ضرورة إلى تغيير . الأمر الذي كان يجعل نجاح الدعوة الإسلامية أصعب بكثير من نجاحها في أرض الحجاز .

والخلاصة فالمجتمع العربي كان أكثر استعداداً لتلقي الدعوة الإسلامية من سائر المجتمعات الأخرى لأنه كان يعاني من الفوضى العقائدية والتنظيمية وغيرهما ما لا يعانيه غيره آنذاك .

ثانياً : ان المجتمع الذي ظهر فيه الإسلام وبعث منه محمد (ص) .

كان مجتمعاً منطوياً على نفسه مغلقاً بالعصبيات والأنانية لا ينسجم مع غيره ولا يقبل انسجام الغير معه فكان من المستحيل عادة أن يخضع لدعوة تأتي من خارجه وسيجيب لنداء الحق المنبعث من غيره فلو كان محمد (ص) من غيرهم والقرآن على غير لغتهم لما آمنوا به بتاتاً ولما خضعوا لسلطانه أبداً . وهذه حقيقة صرح بها القرآن لكريم في آيات عدة . منها قوله تعالى في سورة الشعراء آية ١٩٨ : ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين** ﴾ ومنها قوله تعالى في سورة فصلت آية ٤٤ : ﴿ **ولو جعلناه قرءآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجميٌ وعربي قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنون به في آذانهم وقر . .** ﴾ فهاتان الآيتان الكريمتان تدلان بوضوح على أن عرب الجاهلية كانوا على درجة كبيرة من التعصب الأعمى والأنانية الحمقاء بحيث لو لم يكن محمد (ص) عربياً والقرآن عربياً لما آمنوا بهما أبداً الأمر الذي كان يضر بمصلحتهم خاصة ومصلحة الإسلام عامة .

أما المجتمعات الأخرى يومئذ فانها كانت مجتمعات حضاريه ومتمدنة إلى حد ما فكانت أكثر انفتاحاً ومرونة وأسهل تقبلاً لما يرد اليها من الحق . كما ترى بالفعل أمماً من الفرس والروم والهند والصين وغيرها تقبلت الإسلام وآمنت به عن قناعة واختيار . لا بالقوة والاكراه كما يظن البعض ، لأن ما يفرض بالقوة لا يدوم ، ولأن الأقطار والشعوب المسلمة في آسيا وأفريقيا التي لم يصل اليها الغزو

الإسلامي أبان فتوحات المسلمين أكثر من التي فتحها المسلمون بالحرب كالعراق وفارس وكل بلاد الشام ، ولأن الإسلام لا يزال اليوم وبعد أن فقد الإسلام لقوة السيف لا يزال ينتشر بين شعوب العالم بقوة مبادئه وأحكامه .

ثالثاً : ان الجزيرة العربية التي قام فيها محمد (ص) بالدعوة الإسلامية لم تكن خاضعة لحكومة نظامية من الداخل ولا لسيطرة استعمارية من الخارج ما عدا بعض الأماراة الصغيرة في أطرافها النائية التي كانت تحت حماية الفرس أو الروم . وهذا الأمر قد وفرّ على الدعوة الإسلامية كثيراً من الجهد والجهاد وسهل أمامها طريق النجاح إلى حدٍ بعيد .

إذ لا شك في أن الحكومة القائمة والدولة المسيطرة لا تقف موقف المتفرج مكتوفة اليدين أمام ثورة اجتماعية وحركة انقلابية ودعوة معارضة لها وتستهدف الاطاحة بنظامها كالحركة المحمّدية المباركة تنبثق في بلادها وعلى أراضيها . بل من الطبيعي أن تتخذ كل الإجراءات وتبذل كل الطاقات الممكنة لها للدفاع عن نفسها والحفاظ على سلطاتها والقضاء على تلك الثورة المعارضة لها والمهددة لمصالحها حتى النفس الأخير . مما يجعل نجاح الثورة مستحيلا أو عسيراً جداً لأنها تصطدم بقوةٍ مسيطرة وجيش منظم . أما الجزيرة العربية وخاصة منطقة الحجاز فكانت مهملة وبعيدة عن أنظار الدول الكبار ومناطق نفوذهم لعدم وجود ما يغري فيها ويطمع الدول الإستعمارية بها . حيث كانت أرضاً جرداء قاحلة عديمة الأثر على الصعيد السياسي والإقتصادي والإجتماعي العالمي آنذاك فكل حركة تقوم فيها لم تكن تلقى اهتماماً بالغاً وكل حدثٍ فيها لم يحدث استفزازاً لدى القوتين العظميين المتصارعتين آنذاك الفرس والروم فكان من الطبيعي أن يكون النجاح لها أضمن والسلامة لها أقرب .

وهكذا كانت حركة محمد (ص) .

رابعاً : ان المجتمع الذي بعث فيه محمد (ص) كان أقدر وأقوى من غيره على تحمل مسؤولية الدعوة وأعباء نشر الرسالة الإسلامية نظراً إلى خشونة حياتهم وشظف عيشهم وبداوه عاداتهم الأمر الذي يجعلهم غير حريصين على الحياة ولا يهابون الموت ويستسيغون ممارسة الجهاد ومواصلة الكفاح وان طال الزمن .

أجل لقد كان عرب جنوب الجزيرة أشد الناس فقراً وبلادهم أشد بلاد العالم جدياً يقتل الأخ أخاه والوالد ولده لأجل لقمة العيش . كانوا كما وصفتهم سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع) في خطبتها بقولها : « وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطأ الأقدام تشربون الطرق وتقتاتون القِدَّ أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم . . الخ .

ولا شك أن هكذا مجتمع إذا توفر له بالإضافة إلى خشونة العيش وشظف الحياة والبعد عن الترف ولين المهاد .

أقول : إذا توفر له بالإضافة إلى ذلك وحدة الكلمة والهدف وصلابة العقيدة والأخلاص في العمل تحت قيادةٍ حكيمةٍ وزعامةٍ مثالية فإنه حينئذ يصنع المعجزات ويحطم السدود ويقتحم العقبات ولا يعبأ بقوة العدو وعدده مهما عظما . وسلام الله على الشهيد زيد بن علي بن الحسين (ع) الذي قال : « ما كره قوم حرَّ السيف إلا ذلوا » .

وجاء في الحديث الشريف اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم . . وقال الإمام علي (ع) : « الا وان الشجرة البرية أصلب عوداً وأبطأ خموداً » . الخ . ومن أقوال الأدباء في هذا الباب يحضرني قول الشاعر :

حّب السلامة يثني عزم صاحبه   عن المعالي ويغري المرء بالكسل

وخلاصة الكلام : هو أن عرب الجزيرة آنذاك كانوا يملكون مواهب فائقة وطاقات معنوية جبارة وصفات فطرية نقية من زهد وشجاعة وصلابة وصبر واباء واستهانة بالموت في سبيل الكرامة . تلك المواهب والطاقات والصفات الحسنة التي فجرها الإسلام وهذبها فاندفعت بقوة مدهشة ودفع جبار تزيل الحواجز وتحطم السدود وتحمل رسالة العدل ودستور الإنسانية إلى أمم العالم وشعوبه ، فلهم الفضل الأكبر في قيام الإسلام ونجاح رسالته .

ولكن لما فتحت عليهم أبواب النعيم وغمرتهم ملاذ الحياة وتسرب اليهم داء الترف وحب الراحة وذاقوا لذة الشهوات ، خمدت في نفوسهم شعلة الإيمان وذبلت في قلوبهم نبعة الإخلاص وتضاءلت فيهم روح الأخوة الإسلامية والعلاقات الإنسانية النبيلة ودبّ في نفوسهم داء الأمم الحسد والحرص . . على حد تعبير الحديث الشريف .

فاعرضوا عن وصايا النبي (ص) في أهل بيته وتفرقوا عن وصية وخليفته علي بن أبي طالب الذي نصبه قائداً لمسيرتهم من بعده وأمرهم باتباعه والتمسك بولايته والاعتصام بحبله .

فأدى بهم ذلك بالطبع إلى الأنقسام والتفرقة والإنشقاق حتى صاروا ثلاث وسبعين فرقة . كما تنبأ الرسول (ص) من قبل ، أو أكثر . . وأكبر شاهد على هذا الواقع المؤلم هو

أولاً : قول الله تعالى لهم : ﴿ أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي انحرفتم عما كنتم عليه في حياة الرسول (ص) .

وثانياً : قول الإمام علي (ع) في خطبته المعروفة

بالشقشقية . « بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكن حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها » .

وثالثاً : ما خاطبتهم به فاطمة بنت نبيهم محمد (ص) بعد الإنقلاب على علي (ع) فقالت في خطبتها الكبرى التي القتها في مسجد أبيها رسول الله (ص) في ملأ المهاجرين والأنصار وبمحضر من أبي بكر قائد الإنقلاب .

« أيها الناس أتقولون مات محمد (ص) فخطب جليل استوسع وهنه وانفتق رتقه . فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة . . أعلن بها كتاب الله جل ثنائه في أفنيتكم وفي ممساكم ومصبحكم ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم : **﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾** . أيهاً بني قيلة أأهضم تراث أبي وأنتم بمرءاً مني ومسمع ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذو العدد والعدة والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة توافيكم الدعوة فلا تجيبون وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون وأنتم موصوفون بالكفاح ومعروفون بالخير والصلاح والنخبة، التي انتخبت والخيرة التي اختيرت قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب وناطحتم الأمم وكافحتم البهم حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام ودر حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك وسكنت ثورة الأفك وخمدت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج والمرج واستوسق نظام الدين فأني حرتم بعد البيان وأسررتم بعد الأعلان ونكصتم بعد الأقدام وأشركتم بعد الإيمان (بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول . .)

إلا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم فدوكموها دبرة الضهر نقبة الخف

باقية العار موسومة بغضب الله وشنار الابد موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة .﴿ فبعين الله ما تفعلون . . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد . . . فاعلموا انا عاملون وانتظروا انا منتظرون . . ﴾ الخ .

خامساً وأخيراً . .

ان المجتمع الذي بعث منه وفيه محمد (ص) كان أمياً وخالياً من كل أثر للعلم والثقافة وبعيداً كل البعد عن المعرفة والحكمة وغارقاً في ظلمات الجهل والإنحطاط والفوضى . وهذا بحد ذاته أكبر دليل وأوضح برهان على صدق نبوة محمد (ص) وصحة رسالته وتأكيد بعثته من قبل الله تعالى .

فلو كان محمد (ص) عالماً أو متعلماً أو كان قد بعث في مجتمع متحضر ومتمدن وبين أمة مثقفة فيها العلماء والفلاسفة كاليونان والفرس والمصريين مثلاً . لكانت شبهة الكذب اليه أسرع والتشكيك في صدق دعوته أقوى ومجال الطعن في نبوته من قبل الأعداء أوسع .

ولكن الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته بعباده قطع عنهم كل تلك السبل وسد كل الطرق التي تتسرّب منها عوامل الشك ووساوس الكفر وخواطر الظلال إلى نفوسهم بأن أرسل رسالته الخالدة بالهدى والعلم والاخلاق الفاضلة وأرقى نماذج النظام والتشريع على يد رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم عند معلم أو عالم منذ أن ولد والى أن مات وقد عاش حياته كلها في محيط أمي وبين أناس أميين بكل معنى الكلمة ، قال سبحانه وتعال : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ صدق الله العلي العظيم

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحكمة الإلهية في بعثة محمد (ص) من بين ذلك المجتمع الجاهل خاصة فقال تعالى : ﴿ **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخّطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات** . . ﴾ الخ ، صدق الله العلي العظيم .

على أن العاقل يعرف لو أن محمداً (ص) كان من أعلم علماء عصره ولو بعث في أرقى مجتمعات زمانه علماً وثقافةً لكان مع ذلك جديراً بأن يصدق في دعوى نبوته وحرياً بأن يؤمن الناس برسالته لأن ما جاء به من البينات والهدى والعلم كان ولا يزال فوق قدرة البشر ومستواه العلمي والثقافي والأخلاقي وغيرها . أن ما جاء به محمد (ص) ليعجز انسان قرن العشرين أن يأتي بمثله نوعاً وكماً وكيفاً ، فكيف بإنسان القرن السادس أو الخامس .

أجل أن التحدي والتعجيز الذي صرح به القرآن قبل أربعة عشر قرن لا يزال قائماً إلى اليوم وسيبقى إلى الأبد . ﴿ **قل لأن اجتمعت الأنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** . . ﴾ صدق الله العلي العظيم .

ونقول في الختام : أن هذه الوجوه الخمسة اظهروا هم وجوه الحكمة في عروبة محمد (ص) وعربية القرآن الكريم والله أعلم حيث يجعل (ويبعث) رسالته . .

وتجدر الإشارة إلى أن محمد (ص) ليس النبي العربي الأول والوحيد في سلسلة الأنبياء عليهم السلام بل بعث قبله عدة أنبياء من العرب نذكر منهم . شعيب (ع) وصالح (ع) وهود (ع)ويونس بن متى (ع) وآخرين من غير أولي العزم ويمتاز محمد (ص) على هؤلاء بأنه من الخمسة أولى العزم ويمتاز على كافة الأنبياء بأنه أفضلهم وخاتم الأنبياء ذو الرسالة الكاملة الخالدة والمعجزة القائمة

الدائمة . رسالة الإسلام ومعجزة القرآن .

وخلاصة القول : هو أن كون محمد (ص) عربياً وقرآنه عربي لا يدلان على أختصاص رسالته بالأمة العربية . بل هي رسالة عامة للبشر جميعاً منذ البعثة المباركة وحتى قيام الساعة . بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . . ﴾ الخ ، وقوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ . وقوله حل وعلا : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . وقوله عز من قائل : ﴿ قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً . . ﴾ الخ ، وبدليل الرسالة الإسلامية ذاتها حيث تصلح للتطبيق في كل زمان وعلي كل مجتمع ومكان ، هذا وقد أرسل النبي (ص) الرسل والرسائل إلى ملوك العالم ورؤساء الدول وزعماء الأمم آنذاك يدعوهم إلى الإسلام فمنهم من أجاب وأناب ومنهم من رفض وتجبّر ومنهم من اوعد خيراً وأجاب بالأدب والإحترام وبعث الوفود للتعرف والإستيضاح .

حسبما هو مسطور ومفصّل في المطولات من كتب التاريخ والسيرة النبوية وهذا بحد ذاته دليل واضح على أن الإسلام رسالة عالمية إنسانية جاءت لهداية البشرية وأصلاحها . . .

الفصل العاشر

فكرة المهدي المنتظر

ان فكرة المهدي المنتظر فكرة اسلامية اصيلة ومنبثقة من صميم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وحاصلها أن سيظهر رجل صالح من آل محمد (ص) فيملأ العالم بالعدل والقسط والسلم والسلام بعد أن يملأ بالظلم والجور والفساد ويوحد الأمم والشعوب جميعاً في امة واحدة ودولة اسلامية عالمية .

وهذه الفكرة من حيث الأصل والعموم تجدها صريحة في قوله تعالى من سورة الأنبياء الآية ١٠٥ : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ ويتضمنها قوله تعالى سورة القصص آيه ٥ : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾ وتستفاد أيضاً من قوله سبحانه : ﴿ **هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** . . . ﴾ سورة التوبة آية ٣٣ .

ووجه الإستدلال بهذه الآيات الكريمة على فكرة المهدي المنتظر هو أن الآية الأولى والثالثة تفيد أن الأرض يرثها الصالحون من عباد الله وأن دين الحق الذي أرسل به رسول الله (ص) وهو الإسلام لا بد أن يعم العالم بأسره ويغطي على كافة الأديان وتعلو كلمته كل النظم والمبادىء في العالم . . . ومعلوم بالبداهة أن هاذين الهدفين لم يتحققا بعد إلى الآن والقرآن لا يقول إلا الحق والصدق فلا بد من أن يكون تحققهما في المستقبل بإذن الله تعالى .

وأما الآية الثانية وأن يكن نزولها في شأن بني اسرائيل إلا أنها بعمومها تشمل المستضعفين في الأمة الإسلامية ايضاً وهم آل محمد

(ص) وشيعتهم الذين لم يزالوا مستضعفين حتى اليوم كما اخبر بذلك رسول الله (ص) حيث قال لأهل بيته (ع) : « أنتم المستضعفون بعدي » فلا بد أن يمن الله عليهم بالقوة ويجعلهم قادة العالم وورثة الغاصبين لحقوقهم ان شاء الله . ولا غرابة في ذلك ابداً فإنها سنة الحياة ومنطق التاريخ المشار إليهما بقوله تعالى : ﴿ **أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **والعاقبة للتقوى . . . والعاقبة للمتقين** ﴾ . ومن الآيات التي يستدل بها أيضاً على قيام المهدي المنتظر (ع) قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً** ﴾ وهذا الوعد سيتحقق عند قيام المهدي (ع) ان شاء الله هذا ما كان من دلالة القرآن الكريم على فكرة المهدي المنتظر . . .

أما دلالة السنة الشريفة والأحاديث النبوية الكريمة على هذه الفكرة فاجلى واوضح . وهي أحاديث متواترة ومتفق عليها بين جميع المسلمين وحاصلها أن النبي (ص) اخبر بأنه سيظهر في آخر الزمان زعيم صالح من آله يعمل بالسنة ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويمحو عن وجهها اسباب الظلم والعدوان ويعلى فيها كلمة الإسلام .

ففي صحيح الترمذي بسنده عن رسول الله (ص) أنه قال : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطىء أسمه أسمي .

وفي مسند احمد بن حنبل : مثله ، وفي صحيح أبي داود عن النبي (ص) أنه قال : لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً

من أهل بيتي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وفيه أيضاً عنه (ص) قال المهدي من عترتي من ولد فاطمة .

وفي صحيح البخاري الجزء الثاني باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام عن رسول الله (ص) أنه قال : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم ، وقال الشارح أن ذلك الإمام هو المهدي رضي الله عنه . . .

وفي صحيح ابن ماجة . الجزء الثاني بسنده عن النبي (ص) أنه قال : المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة .

وفي المستدرك على الصحيحين بسنده عن النبي (ص) أنه قال : ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد فيبعث الله عز وجل رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض .

وفي منتخب كنزل العمال . قريب منه .

هذا غيض من فيض وقد جمعت الأحاديث الشريفة الواردة من طرق أهل السنة عن رسول الله (ص) في المهدي المنتظر (ع) فبلغت (٦٥٧) حديثاً تجدها مفصلة في الكتب المؤلفة حول المهدي عليه السلام مثل كتاب البرهان وكتاب منتخب الأثر وينابيع المودّة وغيرها . فراجع . . .

وأما ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من النصوص في المهدي (ع) فكثيرة وكلها تؤكد أن المهدي المنتظر هو الثاني عشر من أئمة أهل البيت (ع) محمد بن الحسن العسكري صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين الذي ولد في مدينة سامراء العراق سنة مائتين وخمس وخمسين للهجرة ليلة النصف من شهر شعبان المبارك

وامه السيدة نرجس المغربية فعاش مع ابيه الحسن العسكري عليه السلام خمس سنوات وبضعة اشهر ولما طلبته السلطات العباسية ليقتلوه بعد أن قتلوا أباه اختفى عن الأنظار وصار يتصل سراً ببعض الخواص من اصحاب ابيه مدة أربع وسبعين سنة ثم احتجب بعد ذلك عن الناس كلياً واختفى اثره نهائياً حتى يومنا هذا .

والطائفة الشيعية الجعفرية يؤمنون بأنه عليه السلام لا يزال حياً يرزق يعيش في مكان ما من هذه الدنيا إلى أن يأذن الله سبحانه وتعالى له بالظهور فيظهر ليملأ العالم بالعدل والأمن والاستقرار حسبما ورد في الأحاديث والأخبار عن النبي (ص) واهل بيته المعصومين عليهم السلام وقد اتفق معهم في هذا المعتقد جمع من علماء اهل السنة ذكر منهم السيد المقدس السيد محسن الأمين في اعيان الشيعة ثلاثة عشر عالماً سُنّياً اكدوا بقاء الإمام المهدي حياً منذ ولادته حتى الآن وإلى أن يظهر .

وهنا ترد شبهات وتطرح تساؤلات حول بقائه (ع) حياً هذه المدة الطويلة التي تزيد على الألف سنة . وقد رد العلماء والخبراء على هذه الشبهات بمنطق العقل والعلم واثبتوا أن ذلك ممكن شرعاً وعقلاً وعلماً ولا توجد استحالة في ذلك ابداً ، وخلاصة تلك الردود هي كما يلي :

أولاً : من الناحية العقلية . . . قالوا أن بقاء الإنسان مدة طويلة في هذه الحياة لا يستلزم استحالة عقلية من اجتماع الضدين أو النقيضين أو ارتفاعهما في آن واحد وبعبارة أخرى ليس هو من قبيل اجتماع الزوجية والفردية في عدد واحد أو ارتفاعهما عن عدد واحد . ولا هو من قبيل اجهماع الماء والنار أو الليل والنهار أو الصيف والشتاء في مكان واحد أو وقت واحد . مثلاً . فهو بلا شك أمر

ممكن عقلاً وكل ممكن عقلي إذا أخبر به الثقات الصادقون يجب التصديق به في عرف العقلاء وقد اخبر ببقاء المهدي (ع) عمراً طويلاً . عشرات بل مئات من الثقات الصادقين وعلى رأسهم النبي الأكرم (ص) واهل بيته المعصومون عليهم السلام كما ثبت ذلك عنهم بالتواتر والاجماع . فكيف يسوغ لنا التكذيب ؟ . .

ثانياً : من الوجهة العلمية . . . وقد قالوا أن العلم لم يحدد إلى الآن عمراً معيّناً للإنسان بحيث لا يمكن تجاوزه . وإنما الذي حدده العلم وعينه بشكل عام هو اسباب الموت . وهي على العموم أن يصاب عضو من الأعضاء الرئيسية في الإنسان بخلل أو عطب لا يمكن تداركه أو نزيف مفرط في الدم أو هبوط أو ارتفاع في ضغطه أو ما شاكل ذلك .

وعلى هذا الأساس يتفاوت الأفراد في الأعمار فكلما كان الإنسان أقوى جسماً ومناعة كلما كان اطول عمراً ومن هنا يوصي الأطباء دائماً بالحفاظ على مناعة الجسم وسلامته بالإبتعاد قدر الأمكان عن المزعجات الفكرية وارهاق الاعصاب وبالحفاظ على سلامة المعدة بالتخفيف من الطعام وغير ذلك . فلو كان للإنسان عمراً معيناً لا يتعداه لكانت كل هذه الوصايا لغواً وهراء .

وها نحن نرى بالوجدان اشخاصاً قد عمروا اعماراً طوالاً بالنسبة إلى غيرهم فجاوزوا المئة والخمسين سنة أو أكثر . وأكثر هؤلاء من سكان القرى والأرياف حيث الهواء الطلق والغذاء الطبيعي السالم وبساطة العيش . وقد قال أمير المؤمنين علي (ع) في كلام له من نهج البلاغة « الا وأن الشجرة البرية أصلب عوداً والروائع الخضرة أرق جلوداً والنباتات العذبة أقوى وقوداً وأبطأ خموداً » والعذبة هي النباتات التي ترتوي بالمطر فقط فهي أقل رياً من النباتات التي تسقى بالآلة والواسطة

ثالثاً : من الوجهة التاريخية . . . قالوا أن تاريخ الإنسان مليء بالشواهد والأمثال من أفراد عاشوا في هذه الحياة مئات من السنين ، منهم مثلاً . . نبي الله نوح (ع) الذي نص القرآن الكريم على أنه « لبث في قومه ألف إلا خمسين عاماً » أي تسعمائة وخمسين سنة وهي مدة دعوته قبل الطوفان أما مجموع عمره الشريف فقد اختلف فيه المؤرخون والمفسرون وتراوحت آرائهم في عمر نوح (ع) بين الألف وثلاثمائة سنة والثلاثة آلاف سنة .

ومنهم : سطيح . كاهنة العرب في الشام الذي عاش إلى زمن ولادة النبي محمد (ص) وأحواله مدونة في التاريخ باب ولادة محمد (ص) وحوادث تلك الفترة وقيل عنه انه عاش ثلاثين قرناً من السنين .

ومنهم : الصحابي الجليل سلمان الفارسي (ره) الذي عاش ثلاثمائة سنة . . . وغيرهم من المعمرين في التاريخ القديم .

رابعاً : من الوجهة العقائدية . . . فإنهم يقولون ان الله سبحانه وتعالى وحده يملك الموت والحياة وبيده وحده الأماتة والأحياء . ﴿ **ولن تموت نفس إلا بإذنه** ﴾ وهو القادر على كل شيء . فإذا تعلقت ارادته في إطالة حياة انسان لحكمة هو يعلمها فلا مانع يمنع من تحقق تلك الإرادة ﴿ **انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ .

والخلاصة : هي ان ليس هناك ما يبرر انكار حياة الإمام المهدي هذه المدة الطويلة نسبياً ولا يوجد دليل عقلي أو علمي يمنع من بقاءه عليه السلام حياً إلى الآن وإلى أن يأذن الله تعالى له بالقيام ليملأ العالم بالعدل والأمان والسلم والإستقرار .

والسؤال الذي يطرح هنا غالباً . هو . . متى يأذن الله له بالقيام ؟

والجواب هو : ان ذلك من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى حتى النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) لم يحددوا وقتاً ولم يشخصوا زماناً لظهوره عليه السلام وانما أعطونا بعض العلائم والظواهر المقاربة لظهوره وأشهرها في الأحاديث الشريفة وأخبار أهل البيت (ع) ، هي : أن تمتليء الأرض بالظلم والجور ويسود العالم كله هرج ومرج وحروب مدمرة وفتن وأزمات شديدة ومجاعات وفساد عام حسبما هو مذكور بالتفصيل في الكتب الخاصة بالمهدي المنتظر عليه السلام .

فإن قلت : ما هو انتفاع الناس بالإمام المحتجب عنهم ؟ .

قلت : أن احتجاب الإمام (ع) ظاهرة انتقامية وغضب من الله سبحانه وتعالى على الناس منشأها اعراض الناس عن الحق والتفافهم حول الباطل وعدم تقديرهم وشكرهم لنعمة وجود الإمام المعصوم بينهم فخذلوا أهل البيت (ع) ونصروا اعدائهم عليهم حتى .

أبادوهمُ قتلاً وسمّاً ومثلة كأن رسول الله ليس لهم أب . .
كأن رسول الله من حكم شرعه على آله أن يقتلوا أو يصلبوا

أقول : هل اغتنم الناس وجود آبائه الأحد عشر عليهم السلام فرصة فاستفادوا منهم الفائدة المطلوبة ؟. هل آزروهم ونصروهم على احقاق الحق وازهاق الباطل ؟ هل دافعوا عنهم ودفعوا عنهم ظلم بني آمية وبني العباس وغيرهم من أعداءهم أعداء الحق ؟. الجواب طبعاً . . . كلا .

والإمام المهدي (ع) لو بقي ظاهراً بينهم لكان مصيره فيهم ونصيبه منهم أشد وأقسى من مصير آباءه الطاهرين (ع) بل كان يقتل حتماً يوم وفاة أبيه الحسن العسكري حيث هجم رجال الشرطة

على دار الإمام يبحثون عنه ليقتلوه فما وجدوه .

والخلاصة : هي أن الناس لما لم يشكروا نعمة وجود الأئمة السابقين ولم يستفيدوا من تلك النعم بل جحدوها وكفروا بها سلبهم الله تلك النعمة العظمى وغيب عنهم حجته وخليفته ليذوقوا وبال أمرهم وسوء عاقبة كفرهم . ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ . ﴿ **ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ ، الخ .

ولا يمكن أن تعود تلك النعمة إلى الناس حتى يشعروا جميعاً بمسيس الحاجة اليها وعظيم افتقارهم لها تماماً كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ وذلك عندما يملأ العالم كله بالظلم والفساد وتفشل جميع النظم والزعامات والقيادات في إيجاد حلٍ للمشكلات العالمية . وييأس الناس يأساً تاماً من قدراتهم وإمكانياتهم الذاتية فيتطلعون إلى فرج السماء ويتوجهون إلى رحمة الله تعالى لينقذهم على يد مصلح معصوم وإمامٍ مدعوم بقوة إلهية فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً . . . اللهم عجل فرجه وقرب ظهوره واجعلنا من أنصاره وأتباعه انك سميع مجيب . اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمةٍ تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين .

ولكن رغم ذلك كله فإن وجوده المحتجب لا يخلو من فائدة كما قال الإمام الصادق (ع) لما سئل في عصره ما انتفاع الناس بالإمام المغيب فقال : كانتفاعهم بالشمس إذا غطاها السحاب . . .

وهذا الجواب وارد عن النبي (ص) أيضاً في بعض الأحاديث ، ويمكن أن يكون انتفاعهم به وهو محتجب في دعاءه المستجاب وبركاته عليهم وتسديد بعض أمورهم وهم لا يشعرون

والله أعلم . . إذ (لو خلت لقلبت) على حد ما ورد في المأثور . وهذا كله مشروط بأن يكون الناس اهلاً ومحل لهذا الإنتفاع قابلين للإستفادة وذلك بأن يكونوا طلاب حق ورواد عدل يعملون لتحقيقهما ويسعون للحصول عليهما بالطرق المشروعة والأساليب الصحيحة فإنه حينئذٍ فقط يكون المهدي (ع) معهم . يدعو الله لهم بالتوفيق والنجاح ويبارك جهودهم ويسدد خطاهم نحو النصر والظفر . كما قال تعالى : ﴿ **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم . . . الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** . . ﴾ الخ ، وقد اكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ .

اما الذين ينكرون وجود المهدي (ع) بتاتاً . او الذين يتخذون من لإيمان بوجوده عليه السلام قاعدةً للكسل والإتكالية والإستسلام فوقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون على ظلم الظالمين واعتداء المعتدين وطغيان الفسقة والمجرمين .

او الذين باعوا انفسهم للشيطان وعبدوا طاغوت المادة والأوثان وانقادوا لأمرة الكفرة واعداء الله . او الذين سلكوا وسائط الشر ووسائل الباطل بزعم انهم يصلون بها إلى غايات شريفة واهداف شرعية . اقول .

اما هؤلاء وامثالهم فلن ينتفعوا ابداً بالإمام المهدي ولا بأيّ نعمةٍ او رحمة وهبها الله لعباده الصالحين . وصدق الله حيث يقول : ﴿**الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ صدق الله العظيم .

وهناك تساثلات أخرى حول المهدي (ع) عن مكان اقامته وكيفية حياته وعدد أولاده وغيرها مما لا نرى ضرورةً في إطالة الكلام

ببحثها وقد بحثت مفصلاً في الكتب الخاصة بالموضوع فليراجع اليها من يشاء . . . والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على محمد المصطفى وعلى آله الميامين وصحبه المؤمنين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

الفصل الحادي عشر

مفاهيم مغلوطة

عن بعض المقررات الإسلامية

ان في المقررات الإسلامية الثابتة كتاباً وسنة ما أسيء فهمها من قبل البعض فلم يعرفوا معناها الصحيح ولا مفهومها الحقيقي فراحوا ينددون بالإسلام وينتقدونه على أساس فهمهم الخاطىء لتلك المقررات .

وها نحن نذكر على سبيل المثال بعضها لغرض التنبيه وهي :

أولاً : التوكل على الله تعالى .

فيظن البعض أن التوكل يعني التواكل والكسل والخمول وترك السعي والعمل فطبق قسم منهم هذا الظن الخاطىء على نفسه وسار عليه في حياته فصار عالة على المجتمع وكلاً على الناس يعيش بالفشل والحرمان والذل والهوان وهو بذلك يعتبر نفسه متوكلاً على الله ومتمسكاً بدين الله ومؤمناً بالله . وقد يؤدي الجهل ببعض هؤلاء أن يموت بمرضه ولم يراجع طبيباً لمعالجته وهو يقول لو شاء الله لعافاني بلا طبيب ولا دواء أو يفتك الفقر به وبعائلته فتكاً ذريعاً فلا يسعى ولا يعمل لرفعه بالطرق العادية والوسائل الطبيعية وهو يقول لو شاء الله لرزقني إن الله يرزق من يشاء . . . وهكذا وإلى غير ذلك من مظاهر جهل هؤلاء .

وراح قسم آخر يندد بالإسلام وينتقده بزعم أنه دين يدعو إلى الخمول والكسل والعيش بالأوهام وانتظار المعجزات .

والحقيقة . . . هي أن الإسلام دين السعي والعمل كما ذكرنا ذلك مفصلاً في الحديث عن مميزاته الستة . قال تعالى : ﴿ وإن

ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ . .

وأما التوكل على الله فيعني الاستمداد من القدرة العليا والقوة المطلقة والعلم الشامل بأن يوفقنا للنجاح في سعينا وعملنا والوصول إلى الهدف المطلوب بما نبذله من قدرتنا وطاقاتنا وامكانياتنا لأن قدرة الله تعالى وارادته تؤثر في سير العوامل ونتائج الأسباب فرب دائب مُظيع ورب كادح خاسر . الخ ، على حد ما قاله الإمام علي (ع) في نهج البلاغة ومن فوائد هذا التوجه إلى الله واستمداد التوفيق منه رغم السعي الكامل والعمل الطبيعي الدأوب . هو : إنا إذا فشلنا في هذا السعي والعمل لا يصيبنا اليأس ولا نتشائم كما هو الحال عند الذين لا يؤمنون بقدرة الله فيعمدون إلى الانتحار إذا فشلوا . جاء في آخر احصاء رسمي عالمي عن الانتحار ان في فرنسا ينتحر الف شاب وشابة كل عام وفي العالم كله ينتحر اربعون الف شخص سنوياً واما محاولات الانتحار فتبلغ مئات الآلاف في العالم كل سنة . . . هذا في احصاء حزيران عام ١٩٧٧ . اما المتوكل على الله فإنه لا ييأس بل يستأنف السعي ويبدأ العمل من جديد ويثابر في السير نحو الهدف واثقاً بأن الله سيقسم له النجاح ان هو أتقن العمل . . ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

الخلاصة هي : أن التوكل على الله الذي أمر به الإسلام في كتابه الكريم وعلى لسان نبيه (ص) يعني استخدام الوسائل والأسباب العادية والسعي بالطرق الطبيعية مع التوجه والتوسل إلى الله بأن يجعل النجاح حليفنا والتوفيق والسداد معنا فيما نسعى اليه ونعمل له . تماماً كما قال النبي (ص) لذلك الرجل الذي اراد أن يرسل ناقته بدون عقال بزعم انه متوكل على الله في حفظها وسلامتها . فقال له النبي (ص) اعقلها وتوكل على الله . . أي وفر

العوامل الطبيعية لحفظها ثم توكل على الله في أن لا تفشل تلك العوامل في عملها .

ثانياً : القضاء والقدر .

حيث يتوهم بعض الناس انهما يعنيان الفرض والإجبار وسلب الحرية والإختيار وبالتالي أن الإنسان مسيَّر مجبور في حياته بالنسبة الى كل ما يصيبه ويحدث له من خير أو شر على اثر اعماله وتصرفاته التي هو مجبور عليها ايضاً .

وهذا ظن باطل وسوء فهم لحقيقة القضاء والقدر الواردين في لسان الآيات والأحاديث بكثرة ، لأنه لو كان الأمر كما يظن هؤلاء لكان المعاد والحساب والثواب والعقاب كلها لغواً وعبثاً لا مقتضى لها إذ الإنسان المجبور عل فعل الشر لا يصح عقابه والإنسان المجبور على فعل الخير لا يستحق الثواب .

بل لو كان الأمر كما يقول هؤلاء لكان انزال الشرائع والكتب وبعث الأنبياء والرسل كلها عبثاً ولغواً ولعباً إذ أن القانون إنما يوضع للأحرار المختارين القادرين على التصرف اما المجبورون المسلوبوا الأختيار فمخاطبتهم بالقانون وتوجيه الأمر والنهي اليهم لغو وهراء . إذ يصدق حينئذ قول الشاعر :

القاه في البحر مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلَّ بالماء

وبالإضافة إلى كل ذلك نجد أن هذا الظن مخالف للوجدان وسيرة العقلاء في العالم ، أما الوجدان فلأن كل انسان يحس من نفسه القدرة على الفعل والترك ولو في أحرج المواقف. ولا يقدم على أحدهما إلا إذا رجح في نظره على الآخر . هذا طبعاً باستثناء فاقد العقل كالمجنون أو السكران مثلاً .

وأما العرف العقلائي العام فإنا نراه يلوم المسيء ويعاقبه وينسب إليه بالذات ما صدر منه من اجرام وسوء كما نراه يمدح المحسن ويثيبه وينسب اليه ما اكتسبه من صالحات الأعمال ونجد الوالد يثني بالمدح والتمجيد على بعض أولاده لصلاحهم وينحو باللائمة والذم على بعضهم لسوء سلوكهم . كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن الإنسان مخير لا مسير مسؤول عن أعماله لأنه يوجدها بإرادته وأختياره بدون أن يكون عليه ضغط أو إكراه . وهذا لا ينافي ان يكون المصدر لتلك الأعمال هي الحياة والصحة والقوة الفكرية التي منحها له الله تعالى . والتي لولاها لكان جماداً لا يصدر منه خير ولا شر ، لأن تلك المواهب الألوهية من حياة وصحة وفكر وشهوات انما هي وسائل يمكن استخدامها في الخير كما يمكن استخدامها في الشر ليس فيها اكراه واجبار للإنسان على فعل احدهما وترك الآخر . . .

وهذا بالضبط ما قرره الإسلام وأكده في آيات كثيرة من الكتاب العزيز : منها قوله تعالى : ﴿ **ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين** ﴾ أي الطريقين طريق الخير وطريق الشر ليسلك ما يشاء منهما باختياره بعد علمه بعواقب كل منهما .

وقال تعالى : ﴿ **ونفس وما سوّاها فألهما فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وهديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً . .** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **تلك امة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . .** ﴾ .

والآن وبعد أن عرفنا سوء الفهم لمعنى القضاء والقدر . فما هو المعني الصحيح لهما ؟ فنقول وبإختصار :

قضاء الله وقدره يعني شريعته ودينه الذي فرضه على الناس تشريعاً لا تكويناً فالله تعالى: ﴿ **قضى أن لا يعبد الا اياه وبالوالدين احساناً . .** ﴾ . فالقضاء هو الفرض والحكم والإيجاب . والقدر هي الأسباب والعلل والعوامل الطبيعية في الحياة للخير والشر فسبب الخير هو أتباع شريعة الله وسبب الشر هو الأعراض عنها . فالله قدر للإنسان السعادة والخير عن طريق دينه ونظامه . فالإنسان حر الأرادة وقادر على أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء من حيث الفطرة والطبيعة ولكنه ليس حراً في اختياره وتصرفاته بل يجب عليه أن يتقيد بقيود النظام ويلتزم بفرائض الإسلام ويبتعد عن الحرام .

وفي تفسير مروي عن الإمام الرضا (ع) ان القضاء هو الحكم الهي او حكم الله على اعمال العباد بالوجوب والحرمة والأباحة وغيرها وان القدر هو العلم اي علم الله بما يصدر من العباد مسبقاً

وهذا ما أراده الإمام القادق عليه السلامْ بقوله المعروف لمّا سئل عن الجبر والتخير فقال عليه السلام : « لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين . . » .

أي لا جبر مطلقاً ولا تخير وتفويض مطلقاً بل جبر من حيث التشريع اذ كل انسان مجبور بحكم عقله وبضرورة الشرع أن يطيع الله ورسوله . . وتخير من حيث التكوين والفطرة حيث أن كل انسان قادر فطرةً أن يطيع الله ويعصيه .

أجل أن الله لم يعطي الحرية للإنسان ليستخدمها كيف شاء وأنّا شاء فتعم الفوضى وينتشر الفساد . بل أعطاها له ليستخدمها في الخير والصلاح ووضع له نظاماً وقانوناً وديناً وشريعة ينظم بها حياته ويبني بها حاضرة ويؤمن بها مستقبله .

أعطاه الحرية ليعمل بالدين بارادته واختياره مع قدرته على العصيان والمخالفة ليمتاز بذلك عن الملائكة والحيوانات وسائر المخلوقات الأخرى التي لا تملك هذه الحرية ليستحق بذلك أيضاً أي بالعمل الصالح عن حرية واردة ، يستحق ثواب الآخرة والمنازل الرفيعة في الجنة التي عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين . .

اللهم اجعلنا منهم ووفقنا لاختيار طريق الخير والعمل الصالح ونبذ طريق الشر إنك سميع مجيب . . .

ثالثاً : الدعاء .

وهو من المفاهيم الإسلامية المؤكدة في الكتاب العزيز والسنّة الكريمة ومعنى الدعاء في عرف اللغة هو طلب الداني من العالي او العاجز من القادر . . . والدعاء في عرف الشريعة يعني طلب الإنسان حاجته من الله سبحانه . . .

ويرد على الدعاء بمعناه الشرعي ومفهومه الإسلامي ، ان الله تعالى عالم بحاجة الإنسان فلماذا هذا الدعاء والطلب ولماذا لا يعطيه بدون الدعاء وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد** ﴾ وفي المأثور . حسبي من سؤالي علمه بحالي . . . يا من يعلم ما في الضمير ؟ . .

والجواب على هذا الإيراد هو . . . ان نقول :

أجل : ان الله عالم بحاجات الإنسان وقادر على قضائها بدون دعاء . ولكن أبىٰ الله في الوقت ذاته ان تجري الأشياء الا وفق اسبابها ، وقرَّر سبحانه ان يكون الدعاء احد الأسباب لوصول الإنسان الى حاجته ، فقال تعالى : ﴿ **ادعوني استجب لكم . . .** ﴾ وقال

ضاً : ﴿ اجيب دعوة الداعي اذا دعاني ﴾ .

ومن جملة الأسباب طبعاً هو السعي والعمل كما ذكرنا في رضوع التوكل آنفاً وهو ما أكده الإمام علي (ع) بقوله : « الداعي لا عمل كالرامي بلا وتر » .

ورغم أن الله تعالى قادر على ان يقضي حاجات الناس بلا قيد لا شرط ، ولكن هذه القيود والشروط لمصلحة الإنسان ايضاً ففي رط العمل والسعي انتظام للحياة الإجتماعية وتقدم ورقي للإنسان ي مجالات العلم والبناء والاستفادة من قوى الطبيعة ونعم الكون . في شرط الدعاء الى الله تعالى والتوجه والتوسل إليه فوائد كثيرة ضاً . .

منها شعور الإنسان بالحاجة الى الله وبضعفه وعجزه وفقره امام درة الله وعظمته وغناه .

وهذا الشعور بذاته يكبح جماح الغرور والعجب بالنفس الطغيان والتجبر على الآخرين حسبما ورد في الحديث ما مضمونه ذا دعتك قدرتك الى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك . . .

ومن الظواهر البديهية المجربة انه ما ترك انسان الدعاء التوسل الى الله سبحانه الا واصيب بداء الغرور والكبرياء هذا الداء مهلك المدمر للإنسان مادياً ومعنوياً . . . قال تعالى : ﴿ قل ما يعبأ كم ربي لولا دعائكم ﴾ ﴿ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ، والعبادة هنا تعني الدعاء وداخرين يعني اذلاء صاغرين . ويبقى سؤال أخير . وهو . . . لماذا ندعو فلا يستجاب لنا ي اغلب الأحيان ؟ .

والجواب : ما قاله الإمام جعفر الصادق (ع) : « لأن الله

دعاكم فلم تستجيبوا له » يعني لم تعملوا وفق نظام وقانون الأسباب والمسببات مثل من يركب سفينةً في الصحراء ويريد لها ان تسير به ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري عِلى اليبس .

وهناك سبب آخر لعدم استجابة الدعاء وهو ما أشير اليه في دعاء الإفتتاح المأثور عن الإمام المعصوم (ع) حيث يقول فيه : « ولعل الذين ابطأ عني هو خيرٌ لي لعلمك بعاقبة الأمور » الخ . وخلاصة ان الله اعرف بمصلحة الإنسان وقد يكون ما يطلبه ويسعىٰ له هو خلاف مصلحته وصلاحه . قال تعالى : ﴿ **عسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** . . . ﴾ صدق الله العظيم . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وإلى اللقاء أيها القاريء الكريم في حلقات قادمة من هذه البحوث ان شاء الله تعالى .

الفهرست

الموضوع	الصفحة